

رِبَّكَ

سَمِيرُ عَبْدُ الْبَاقِع
عَلَمَ مَا مَشَ السَّيْرَةُ الْبَاتِلَةُ

وَلَا هُمْ بِهِنْ لَوْنٌ



مدبولى الصغير

إِهْدَاءً

إِلَيْهِمْ .. إِلَيْهِنَّ ..

كُلُّهُمْ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ

أَيْنَمَا .. هُمْ

حَيْثُ شَاءُوا .. هُمْ

كَيْفُمَا .. هُمْ

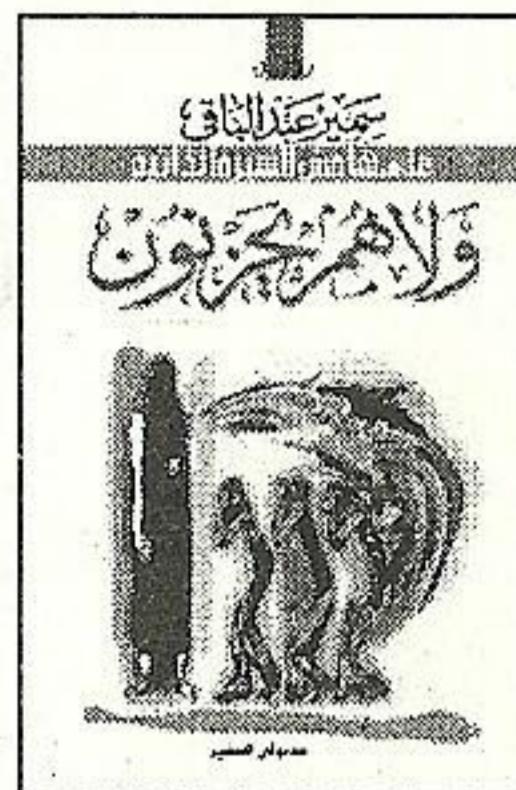
مِنْ حَمْلَوْنِي هُمْ هُمْ

مِنْ أَطْعَمْوْنِي خَبْرُهُمْ

مِنْ أَهْمَمْوْنِي .. حَبْهُمْ

مُحَمَّدُ الْبَاعِي

هوامش على السيرة :
الكتاب الأول : ولا هم يحزنون
رواية - القاهرة / ٢٠٠٥
■ المؤلف :
سمير عبد الباقي



الناشر:

مدبولي الصغير

٤٥ ش البطل أحمد عبد العزيز المهندسين - القاهرة
تليفون: ٣٣١٢٤٢٥ (٠١٢) - ٣٤٦٣٥٣٥ (٠٢)

رقم الإيداع في دار الكتب المصرية:

٢٠٠٥ / ١٠١٢٨

ترقيم دولي:

٩٧٧ - ٢٠٣ - ٢٨٦ - ٤

■ تصميم غلاف وتنسيق داخلي:

كامل جرافيك

ت: ٣٠٣٤٤٩٠ - ٣٠٤٧٧٠٩

■ رسوم الغلاف:

كولاج من أعمال

الفنان عمر جيهان

والفنان محمد الطراوي

رواية

قول من حمل السيرة النازلة

وللأقر بحزنوا

الكتاب الأول

سَمِير عَبْد الرَّاقِع

مدبولي الصغير

فُذلَّكَة

«أَنْصَحْ كُلَّ مَنْ لَا يَرِيدُ أَنْ يَتَفَزَّلَكَ
أَنْ يَتَجَاهَلْ هَذِهِ الْفُذلَّكَةِ»

• فجراليوم الذي توصلت فيه - بعد إمعان الفكر في كل الاحتمالات - إلى القرار الحاسم الأخير بقتل تلك الذبابة اللعينة التي تخلقت من تلال الجثث اليومية والتي لا تكف عن الزن والطيران في دوائر حلزونية بين عيني وبين الصفحات البيضاء.. لتجعل من الكتابة عذابا لا يطاق وألمًا لا حدود له.. كنت قد تعاقدت مع إحدى محطات الإعلام المبكر على كتابة قصة حياتي (التي انتهت بوصولي إلى قرار الاستقالة من عملي كمدير عام لمنحة التفرغ بوزارة الثقافة. والتقدم إلى نفس الإدارة لطلب منحة للتفرغ إعمالاً لحقي كمواطن ودافع ضرائب) في مسلسل فكاهي يبحث في الجذور الإنسانية لأسباب تفشي مرض الرغبة في قتل الذباب.

ورغم أنني يومها لم أكن أدرك بالضبط عمق وماهية العلاقة بين محطات الإنذار المبكر والإعلام القومي وبين الدراما الفكاهية. فقد وافقت على الفور، تحت تأثير المبلغ الذي عرض علي في مقابل ذلك. والذي كان كافينا بأصفاره العديدة لحل كل المشاكل المادية الآنية والمستقبلية بصورة تقطع الطريق على أي فرصة للمساومة أو الرفض.. أو حتى مجرد الشك في حتمية تلك العلاقة المزعومة، ولأنني من المرضى بداء الشك والبحث عن المؤامرة وراء العلاقات الغريبة والظواهر الشاذة المؤكدة.. التي تبدو وهمية ومزعومة لأسباب عقائدية

مخالفة أو مضادة.. أستطيع أن أجزم أنني الأكاديمي الوحيد الذي جعل من تلك العلاقات الغريبة موضوعاً لأطروحة جامعية وان كنت لم أتمها حتى الآن بسبب فشلي في إقامة علاقة عادية مع امرأة غريبة، عرضت علي بدون أي عاطفة، أن تشاركني الهموم التي ركبتنى منذ أن قسمت قريتنا إلى (علو البلد) و(واطي البلد) حتى اللحظة التي توصلت فيها بعد مجاهدة إلى قراري الأخير الخاص بالذباب، خاصة ذلك المتخلق عن أ��ام الجثث اليومية التي لم تعد تثير لدى أصحابها أو لدى قومهم أية مشاعر..

وها إنذا أمسك القلم كالسيف، بقوه تتناسب مع قوه الدافع وراء قبولي كتابة ذلك المسلسل الفكه.. قلم من رصاص مستورد فاخر لا يحتاج للبرى إطلاقاً.. هو بالتأكيد وبحكم التطور الثوري لمنطقة كلها لا يشبه تلك الأقلام التي كنا نستعملها أيام كان الذباب مخلوقات أليفة تتواجد في كيمان الروث في الزرايب الوديعه، حول بيوت القرية وخلف مدرسة (الشيخة) الأولى، التي تلقيت فيها دروسى الأولى في برى الأقلام، رغم أنها كانت مدرسة بنات.. لم يمنع ذلك أن تكون أقلاماً مستوردة، هي الأخرى، فلم تكن بلادنا قد وصلت إلى المرحلة التي أصبحت تنتج فيها كل شيء من الأبرة حتى الصاروخ الظافر والقاهر وغيرها... كانت الأقلام مختلفة لأن الملكية كانت لا تزال تأخذ بخناق مصر).. وال الحرب تدق أبوابها بشدة.. ولكن ذلك لم يمنع أن تكون أقلاماً مختلفة عن تلك التي عرفناها بعد نكبة (فلسطين)، أيام مدرسة (الشيخ علي) الابتدائية ووصول (مصطفى النحاس) مرة أخرى للحكم، دون حاجة لرماح ودبابات الأنجلينز، بل كانت تكتفيه أصوات الفلاحين والأعييب مدرسي (الإلز) الذين يذكرون لحكومته السابقة قانون الإنصاف شاكرين مهملين لفاسفة (طه حسين) عن الماء والهواء في مجال التعليم.

كانت أقلاماً مستوردة نعم، ولكنها كانت مضلعة غير مستديرة ملفوفة كالسابقة ومصنوعة من خشب طري أصلي سهل البرى.. لذلك كنا نحن التلاميذ الصغار نتفنن في تقليد طريقة الأستاذ (محمود

سالم) ونظريته في بريها..

تلك الطريقة الفذة التي تبدأ بعمل حَزْ أَفْقِي دائري كامل ومنتظم على بعد معين من جذر السن المغروز بطريقة عبقرية في الخشب، ثم البدء بالضغط بخفة ورقة على حرف الموس وتوجيهه بزاوية معينة لانتزاع سلخة رقيقة من الخشب، واحدة وراء الأخرى ليصبح السن قمة سوداء لهرم في غاية الإتساق.

كان أبي يسخر كثيراً من هذه الطريقة.. ويفضل بري الأقلام بطريقة (كلشن كان) ولم يعرف أن هذه الطريقة التي تبناها الأستاذ (محمود سالم) كانت الوسيلة المثلثة التي أهلته ليصبح ناظر المدرسة، رغم طيبته الشديدة، متخطياً أحقية أبي وأقدمية الأستاذ (محمد شاكر).. الذي اشتهر بحدته وحزمته في تطبيق نظريته في التعليم التي أخرجت من تحت يديه تلاميذ نوابغ في كافة المجالات - أنا أحدهم بلا فخر! - لكنه وأبي لم ينتبهما إلى الاعجاب الذي كانت تثيره طريقة الأستاذ (محمود) في البري عند المفتشين الكبار وأعضاء مجلس المديرية بل والوزير نفسه، وزير المعارف، الذي أرسل خطاباً بليغاً يثنى على الأستاذ (محمود سالم) وطريقته الفذة!.. مما أثار في نفسي الرغبة الحارقة في دراسة الأمر.. وفتح أمامي باب الاجتهد على مصراعيه.. للبحث فيما وراء العلاقات الغريبة بين الأشياء والظواهر العادية.. مثل هذه العلاقة الخفية بين هذه الطريقة المتميزة في بري الأقلام الرصاص وترقية مدرسي الالزامي إلى نظار قبل قيام (ثورة يوليو)!.

ذلك الفرض الذي لم أتم فيه أبحاثي بعد بسبب نجاحي في إقامة علاقة غريبة مع امرأة عادية قررت أن تكرس حياتها للبحث عن أسباب حقيقة لحزني العميق الدائم وبكائي حتى في لحظات الفرح النادرة التي قد تغمرنا، حين نتجاهل طوابير وأكوام الجثث المولدة للذباب اللعين، رغم تكفيتها في أعلام مقدسة متعددة الألوان!.

نسيت في غمرة إسترالي أن أذكركم.. أو على الأصح أحذركم.. أن عيبي الكبير الذي قد لا يكون العيب الوحيد في كتابتي، هو ذلك

الاسترسال الممل والخروج المفاجئ غير المبرر عن الموضوع الأساسي، أو الذي يبدو أنه الموضوع الأساسي.. للحديث عن موضوع فرعى.. أو يبدو أنه فرعى.. مع أنه قد يكون موضوعاً أساسياً ورئيسياً بقدر ما يكون الموضوع الأساسي والرئيسى فرعياً..

لكن الحقيقة الموضوعية تبقى موضوعية.. ولا يهم معها كون الموضوع الرئيسى أصبح فرعياً أو العكس.. أنتي لا تسترسل بمزاجي ولكنى أفعلها مضطراً.. بالضبط كاضطرارى الآن لقطع الاسترسال في الحديث عن الأقلام الرصاص والتطور التاريخي لطرق بريها بدون برایة وعلاقة ذلك بترقية المدرسين (الإلز) إلى نظار مدارس (أولية)، والعودة على الفور للحديث المقطوع عن قراري التاريخي بطلب منحة تفرغ لقتل تلك الذبابة اللعينة، ذلك القرار الذى كان منطقياً مع قبولي التعاقد لكتاب المسائل الفكاهي عن الانذار والإعلام المبكر، لأن حدثاً تاريخياً قد حدث للتو.. وهو أمر وإن بدا بلا علاقة على الاطلاق بما كنت بصدده تحقيقه.. أوله علاقة لا أدريها بسبب قصور طبيعى لدى فى فهم الأحداث التاريخية.

ولعل أحد الذين تعودوا فهم وتفسير التاريخ منكم يستطيع ذات يوم أن يكشف عن جوهر العلاقة بين ما حدث الآن وبين قراري الأخير المترتب على قراري الأول..
والىكم ما جرى..

كنت قابعاً في سيارتي اللادا (1500) وهي واحدة من آخر جيل سيارات اللادا المنتجة بفضل وطأة الفهم الاشتراكي للصناعة تحت السلطة السوفيتية. وهو أن تكون سيارة العمر لصاحبها. سيارتي التي أشتريتها من حر مالي وبعرق جبيني (وهذه عبارة مبتذلة، لكنها ضرورية رغم الاستعمال السوقي لها - خاصة من أولئك الذين يعذبهم ويرهقهم أنهم عاشوا وما توا فوق الشبهات من أمثالى) فاعذروني.

كنت قابعاً مسترخيا في المقعد الخلفي أحياول النوم، بعد شجار

ونقار روتيني مع ابني الوحيد لسبب تافة كعادتنا.. وفتحت الشباك
الزجاجي المواجه.. للبحث عن نسمة شاردة من هواء (شرم الشيخ)
الساكن الثقيل. ذات صباح من صباحات (سيناء) التي عادت كاملة
لينا.. حين سطعت شمسها فجأة مرسلة أول أشعتها القوية لتلسع
قفاي وتزيد إحساسني بلزوجة وثقل أنفاسي.

كنت قابعاً مسترخياً سعيداً أو هكذا خيل إلى.. لأنني قبلها كنت قد
بدأت أمسك بأول خيط لبداية الكتابة.. بل كنت منتثرياً والقلم منذ
البكور يثرثر فوق الورق.. كما تلاحظون بأنفسكم - وكما يشهد لي ما
كتبته حتى الآن دون خروج على الموضوع الرئيسي إلا قليلاً.. بل أكاد
أجزم أنني لم أخرج عنه على الإطلاق بحكم ترابط الأشياء في عز
صراع الأضداد.. لأنني متمسك بكتابه ما حدث بالضبط منذ بدأت
تنفيذ قرار التفرغ للكتابة المترتب على قرار قتل الذبابة..

فجأة.. مربجواري أحدهم.. فنبهني - كأنها المرة الأولى للحظة
جحافلهم المنتشرة حولي والتي كنت أتجاهلها.. عمداً.. أو غفلة.. منذ
وصلت إلى (سيناء الجنوبية).. لكنه مرأقرب مما أتصور أو أتوقع..
مروراً حقيقة وليس متخيلاً تحت تأثير أي تحليل متطرف.. ها هو
واحد منهم ومعظمهم أو كلهم في سن الشباب من الجنسين - وإن كان
أكثرهم من النساء - من مختلف جنسيات الأرض، رغم تشابههم كأي
(يهود) في مخيلتي.. قد لا يلاحظ غيري هذا التشابه ولكن طريقة
سيرهم في عنجهية.. وأسلوب التخاطب فيما بينهم ونبرة الغلظة
والتعالي التي تسود لهجتهم عندما يتحدثون أو يتعاملون مع
المصريين.. وأبتسامتهم الباردة التي تلجم في الحلق اللسان العربي
الفصيح.. وتشل اللهجة العامية.. وتحكم بالفشل على أي محاولة
للتوعد تحت تأثير اعتقاد راسخ عند العامة في كل أنحاء الأرض أنهم
جميعهم (أولاد كلب) وحرامية.. ويعبرون الحدود بكل حرية ليقضوا
اجازاتهم الأسبوعية بعد ستة أيام عمل مضن في بناء (إسرائيل)

المعاصرة على أرض رخيصة لا أصحاب لها.. أو لها أصحاب، مستباح
قتلهم في أي وقت دون أن يتربّى على قتالهم سوى تخلق ونشوء أسراب
آخر من الذباب اللعين لا يحس به سوى من كان مثلـي لم يفهم بعد
مغزى العلاقة بين الانذار المبكر والفكاهة الحديثة.. ولا يدرك الأسباب
التي يسرت لهم رفع راياتهم فوق تلك الأرض منذ وضعوا أيديهم عليها
ولذا صار من حقهم طبقاً لقوانين الانذار والاعلام المبكر.. وحسب
حيثيات إعدام (خميس والبقرى) و(شهدى) و(عبد القادر عودة) وسحق
(تل الزعتر) وهدم (حلب) و(حمماه) على رؤوس أهلهما.. واغتيال
المساجين (الإخوان) في (عنبر التجربة) وإذابة (فرح الله الحلو) في
الحامض بدم بارد وأضعافـين في اعتبارنا قواعد الدراما التلفزيونية
والكوميديـا الحديثة التي تسمح لهم أن يبرطعوا شـبه عرايا.. كـهذا
الشاب الذي ذكرته وتحققت من وجوده عند مروره على هذه الدرجة
من القرب المـفيظـ. ليصدر في مواجهة وجهـي صوتـاً فـظـاً غـليظـاً قـاتـماً
من إـستـهـ نـاشـراً رـائـحةـ كـريـهـةـ كـرـائـحةـ فـأـرـمـيـتـ، في نفس لـحظـةـ وـقـوعـ
ظـلهـ على الصـفـحةـ الـتـيـ كـانـتـ فـيـ حـيـنـهاـ بـيـضـاءـ.. وـمـؤـهـلـةـ كـيـ تـحـمـلـ مـنـ
الـكـلـمـاتـ مـاـ يـسـهـمـ فـيـ تـغـيـيرـ مـسـارـ التـارـيـخـ.. قـصـيـدةـ أـوـ وـثـيقـةـ مـنـ وـثـائقـ
(الـثـورـةـ الـفـلـسـطـيـنـيـةـ) أـوـ كـشـفـاًـ بـأـسـمـاءـ الـأـسـرـىـ الـمـغـتـالـيـنـ فـيـ (يـونـيـوـ) أـوـ
نـداءـ لـلـرـأـيـ الـعـالـمـيـ أـوـ قـرـارـ مـنـ قـرـاراتـ الـأـمـمـ الـمـتـحـدـةـ مـنـذـ نـكـبةـ ٤٨ـ
أـوـ نـكـسةـ ٦٧ـ أـوـ وـكـسـةـ الـأـزـقـ الـأـخـيـرـ الـذـيـ وـضـعـتـ نـفـسـيـ فـيـهـ باـعـلـانـيـ
قـرـارـيـ الـأـحـمـقـ بـأـثـكـتـابـهـ وـالـقـتـلـ.. قـتـلـ الذـبـابـ.. أـوـ هـيـ لـنـفـسـ الـأـسـبـابـ،
كـانـتـ مـهـيـئـةـ لـتـصـبـحـ شـاهـداـ عـلـىـ عـصـرـ بـكـامـلـهـ.. وـحـقـبـةـ هـامـةـ تـارـيـخـيةـ
جـداـ بـدـأـتـ مـنـذـ اـنـدـلـاعـ الـحـرـبـ الـعـالـمـيـةـ الثـانـيـةـ.. أـوـ عـلـىـ الـأـقـلـ مـنـذـ اـقـتـحـمـ
سـكـونـ صـبـاحـ عـاصـمـةـ الـمـصـرـيـنـ ذاتـ يـوـمـ مـنـ أـيـامـ الـعـامـ الثـانـيـ
وـالـخـمـسـيـنـ.. صـوتـ ضـابـطـ، كـانـ يـهـوـيـ فـيـ صـبـاهـ رـكـوبـ العـجلـ، ثـمـ أـصـبـحـ
فـيـ شـبـابـهـ يـعـشـقـ التـمـثـيلـ، إـسـمـهـ (أـنـورـ السـادـاتـ) أـرـسـلـهـ زـمـلـاؤـهـ.. بـعـدـ لـيـلـةـ
لـيـلـاءـ شـاهـدـ فـيـهـ ثـلـاثـةـ أـفـلـامـ رـدـيـةـ مـعـ زـوـجـتـهـ الجـمـيـلـةـ الـتـيـ تـعـمـدـ أـنـ
يـتـشـاجـرـ بـسـبـبـ جـمـالـهـ مـعـ أـحـدـ الـمـيـكـانـيـكـيـةـ.. إـلـىـ ٤ـ شـارـعـ (الـشـرـيفـيـنـ)
مـهـتـطـيـاـ دـبـابـةـ إـنـجـلـيـزـيـةـ الصـنـعـ وـقـدـيـمةـ لـيـعـلـنـ.. أـنـهـمـ خـرـجـواـ بـمـلـابـسـهـمـ

الرسمية حاملين أرواحهم على أكتافهم ليغيروا وجه التاريخ (بالنظام والاتحاد والعمل) وليطهروا مصر من كل فساد ووساخات الماضي والحاضر والمستقبل وذلك بالقضاء على (الجهل والفقر والمرض)! لينفذوا هذا الشعب الخالد، الذي تفنن الجميع في خداعه بأكذوبة (الدستور والديمقراطية) وليكفوا عنه أيدي وألاعيب الأعداء ومؤامراتهم التي يحيكونها علانية وفي الخفاء منذ رفض الوفد دخول الأحلاف ورفض الطلبة (النقطة الرابعة).. أوه !!

يا للهول.. لقد خرجت عن السياق وقطعت رقبة التسلسل والسرد الفني.. أعدروني.. لقد اندمجت ونسخت الأصول الفنية للرواية، بسبب رائحة الفار الميت التي أصبحت لاصقة بجلد أنفي.. ولكن عذري أنني كنت أحاول أن أوضح لكم بكل وضوح تلك العلاقات الغريبة بين قراري - الكتابة المترتب منطقياً على قراري - قتل النبابة اللعينة. وعلاقة كل ذلك بالمرور المتعمد لذلك الشخص الغريب. واصراره على إفساد لحظات تأملني بذلك الصوت الغليظ، ذي الرائحة النتنة من إسته المبارك..

لا أريد أي محاولة للإعجاب بي أو أطراء موقفي هذا الذي يتسم بروح المواطن والعزّة القوميّة الذي أقفه الآن.. فلقد شبعنا - مؤلفين وقراء - من ضوضاء التصريح المنافق الذي يجعل الحبة قبة.. والاعجاب المبطّن بالكراهية والأطراء الكذوب المغلف بالخوف، الذي صار ناموساً يشكل العمود الفقري لإدارة شئون الوطن من خلال هذا العدد الهائل المتواتي من الاحتفالات التاريخية والمهرجانات الفنية والسياسية (منذ امتنى الحجاج بالسيف زمانه) كما ورد في قصيدة **الخالدة** (جمانة الدمشقية)، التي لا يذكرها أحد ليس لنقص معيب في شاعريتها أو محدودية قيمتها الفكرية.. ولا لشبهة حول ضعف

موقفها الثابت من القهر الذي نعايشه. مستمتعين بالتعود على سلطته علينا بدور حَلْ وفلاحين.. ولكن بسبب تجاهل النقاد الجوف والصحفيين الرسميين لواهبي الشعريّة.. فهم يفضلون القصائد المبرقة، والمونولوجات السوقية التي تعد لتزيين بها المسافات بين موائد حفلات العشاء الرسمية والشعبية على حد سواء - أولئك البشر الذين نشأوا وترعرعوا في (الصوبات الأمنية) والذين تجبرني سيرتهم على قطع استرسالي مرة أخرى وتعطيل قدراتي على السرد بالبراعة المألوفة..

إذ تكشف سيرتهم رائحة الفار الميت. فتعكر الجو أكثر فأكثر حولي وتخلل نحاشيشي، مهدده بإفشال كل قراراتي ابتداءً من مشروع الكتابة حتى معركة قتل الذباب..

وتجبرني في قسوة وغل أن أسرع للبحث عن دورة مياه أو زنزانة تأديب لكي أتنفس فيها بحرية بعيداً عن أي روائح غليظة مثيرة للأشجان القديمة أو مشعلة الذاكرة الخامدة.. بعد هذه السن المتقدمة المثقلة التي قنوه بأعباء الصحة المعتلة والعقل الضعيف التركيز بسبب كل عوامل التلوث التاريخية التي لا ترك فرصة أي فرصة أمام باحث أكاديمي مثلي أن يتأمل ويفكر في هواء صحي غير ملوث ليستطيع إعادة ترتيب المعلومات والتفاصيل والأحداث بمنطق فني معقول ليقترب الشكل ويتطابق مع المضمون.. وليس تخلص منها القواعد السائدة والمحددة السلوكي الشخصيات الكاريزمية في السلطة والمعارضة.. أو تلك الشخصيات المسحوقة المتبعة التي تحاول الاسترخاء في عرياتها اللادا دون حماية ولو بسيطة، من نزوات الكائنات التي تنفث الروائح الكريهة من مؤخراتها. والتي تصر على تعطيل قدراتي على الإمساك بخيوط دراما الإنسان الحالم بقتل الذباب أو جمع تفاصيل وواقع المسائل الفكاهي عن الانذار المبكر.. لأضطر تحت وطأتها للتلفيق علاقات رومانسية مشوهة أو خلق شخصيات خيالية مزيفة وافتعال أحداث وطنية وقومية ذات روح نضالية متطرفة تخفف وطأة الذل والقهر لأتواءم مع السائد.. أو

تجبرني على إنهاء هذه الثرثرة.. كي أعطى للقارئ الحرية ليقرر بإرادته الكاملة.. أن يواصل قراءة هذا اللغو.. أو أن يطلق للأبد عادة القراءة الرديئة التي أفسدت حياة البشرية منذ اختراع الورق وأقلام الرصاص.

• تأكدت فجأة أنني جد مخطئ في اختيار فكرة هذا المسلسل.. فماذا لو قضينا على الذباب؟ أي فائدة ستعود على البشرية من ذلك.. وناقلات الأمراض من الحشرات لا حصر لها.. ولا عد.. ثم أن الذباب المتخلق من الجثث المغتاله لا يعتمد مطلقاً نقل أي مرض، لأن الجراثيم هي التي تلتصق بأقدامه، أو بأجنحته دون سؤاله ورغم إرادته.. ومن الأجدى أن نوجه الجهد نحو حشرات أخرى.. مهمتها الأساسية في الحياة نقل ونشر الأمراض والأوئلة القاتلة.. أو هي مجهزة بكل الوسائل لإنجاز ذلك.. ولو أننا فكرنا في الأمر من الناحية الفلسفية لوجدنا أن من المصلحة تنمية الجانب الإيجابي للذباب في الحياة، وبالتالي فقد ينتهي الأمر بنا إلى تشجيع تنمية وتكاثر الذباب لا إلى قتله.. إلا يقوم الذباب بنقل ولو جزء ضئيل أو نسبة قليلة من حبوب اللقاح.. إذا ما وقع على زهرة لا على كوم قمامه؟..

ماذا لو انتشرت الحدائق الصغيرة في الشوارع وعلى التواصي وفي البلكونات والمناور الخلفية بدلاً من أكdas القمامات وتلال الجثث وأنقاض البيوت المهدومة.. ستُنقلب نظرتنا إلى الذباب تماماً.. ويصبح أليفاً لطيفاً.. أليس هناك احتمال أن يكون (حديث الذباة) حديثاً صحيحاً غير مشكوك فيه كما يدعى بعض (العلمانيين المفروضين)

الذين يتعمدون في سبيل الترويج لتخلف المسلمين وميولهم الإرهابية، اعتبار هذا الحديث دليلاً على رأيهم المتشكك..؟ إذ يتجاهلون أن كل الجراثيم تخلق في بيئتها أجسام مضادة لها. والا لفنيت البشرية وانتهت الحياة من زمن بعيد أمام هذا القتل الدائم الذي لم يتوقف يوماً..

ولذا فجناح ذبابة قد يحمل، أو هو بالتأكيد يحمل الأجسام المضادة للجراثيم العالقة بالجناح الآخر.. لكنها اللجاجة وسوء القصد الذي لا يزيد مواجهة الحقائق كما هي!.

لقد اشتطرت بي الأفكار التي تجحب فكرة المسائل لدرجة الإحساس بتفاهتي، لأنني تعلقت بفكرة قتل الذباب، لأن ذبابة رزيلة ضايفتنا في (شرم الشيخ)، فلو أن الأمور سارت على هذا المنوال.. لقضينا على الحياة من زمن.. وتكان علينا إبادة شعوب بكمالها.. لأن بعض أفرادها إرتكبوا جرائم باسم تحديتها أو تثويرها أو تطويرها أو الحفاظ على استقرار وأمن أوطانها.. ولقضينا اذن على (الألمان) واجتثثنا شأفتهم، لأن متغصباً (كهتلر) كان يظن أنه يسيّد هم على العالم فقادهم لحتفهم.

ولمحونا ذكر الأوغنديين بسبب نزوات (عيدي أمين). وحكمنا بشنق (الأتراك) بسبب اغتيال سلاطين (العثمانيين) لأولادهم أو لأبائهم.. ودمروا مدن (اليونان) وحضارتهم لأن العسكر ذبحوا قرى بأكملها في (اليونان) وغيرها من بلاد العالم لاستئصال (الشيوعية) التي سرت كالنار في الهشيم في الخمسين عاماً الأولى من هذا القرن..

ولسقنا كل سلالة (الچورچيين) لأفران الغاز لأن طاغيه مثل (ستالين) قرر أن تصبح (روسيا) التي لا ينتهي إليها أصلاً - دولة عظمى.. وبالمثل كانت حضارة (المصريين) قد أصبحت غابرة منتشرة واستئصلت شأفة المصريين من زمن بعيد، لأن بعض من تجري في عروقهم الدماء المصرية (أصيلة أو مخلطة أو نسبية) يخضعون كل أمور الحياة والبشر منذ فترة لرأى (الأجهزة الأمنية) ويعطونها الحق

في القضاء على مستقبل البعض وتهيئة آخرين للسيادة وللنجموية والحكم.. فقتلت في السلالة كلها روح الإبداع والخلق وحوّلتهم إلى قطعان من الدهماء والرعام والغوغاء.. معك معك عليك عليك، زمرة تجمعهم وعصايا تجريهم، ولا يهمهم من الحياة إلا هم بطنهم وأشبع لذائذهم الحسية.. وأحييني النهاردة وموتنى بكرة.. على عكس انجازهم الذي قاد البشرية للتقدّم والرقي حين أبدعوا (فكرة الضمير).

لا.. أن الجهد العبشي الذي بذلته لطرد تلك الذبابة اللعينة كان في الحقيقة خطأ تاريخياً، وكان على أن تأمل صورة ذلك العجوز الأفريقي الفيلسوف الذي أجرت معه مذيعه (السي إن إن) حديثاً حول المجاعة في (الصومال) أو (الحبشة) لا ذكر أو لا يهم، وكان جالساً يا عين أمه جلد على عضم.. يتحدث عن حلم بلاده في حفنة قمح تهبط من السماء لكن بدون الطائرات الهليوكوبتر التابعة للأمم أو الولايات المتحدة حفاظاً على استقلال بلاده.. وقد ترك الذباب يرعى على وجهه آمناً لا يكلف نفسه جهداً (لنشه أو هشه أو إزعاجه).. وهو جهد كان من شأنه أن يسرع باستنزاف الطاقة الخافتة التي تساعده، ما زالت على الكلام في حماس حول وحدة بلاده.. ونقاء عنصره.. ورغبته العارمة في أن يكون له مكان تحت الشمس.. من أجل مستقبل البشرية.. خاصة وأنه اكتشف بكل بساطته جوهر الوجود.. في عش ودع الذباب يعيش.. فما فائدة طرده إذا كان سيتخلق في كل لحظة من أکواں الجثث التي تنبت على الأرض وتتكاثر أسرع من تكاّثره، لذا يعود مرة أخرى بعد ثوانٍ بل بعد أقل من وهلة ليرعى آمناً حيث يشاء، ولا ينوب المرء سوى استهلاك طاقته في حركات (هش ونش) لا فائدة منها ولا طائل ورائها.. والأذى الناتج عن ترك الذباب يرعى فوق صفحات وجهه.. ويأكل من عيونه وفمه أقل كثيراً من الأذى الناتج عن تلك الحركات العشوائية التي لا تفيد في طرد أو إزعاج الذبابة العائدة رغم أنف الجميع، وهو أمر يرسّد وأقرب إلى حكم الطبيعة، ألم يعد

(الأمريكان) إلى (الكونغو) و(أفغانستان) بدلاً من (البلجيك) و(الإنجليز) أو تحت رايتهم و(الفرنسيين) إلى (غرب أفريقيا) و(ألمان) إلى قلبها النابض، و(الإسرائيليون) إلى (غزة وأريحا).

تبين لي أن فكري هذه تافهة. وأن موافقة جهة الانتاج على صرف نقود لي لتحويلها إلى مسلسل أمر مريب وتفاه آخر. فهي فكرة ليس وراءها سوى تعطيل قدراتي التي يمكن استغلالها في كتابة فكرة أخرى.. أقل تفاهة.. أو أكثر عمقاً.. كالمبحث وراء سريري الأقلام الرصاص على طريقة (محمود أفندي سالم) واعتلاء الكراسي ذات المسئولية الكبيرة، كناظارة المدارس ورئاسة الجمهوريات في العالم الثالث، لأن كل التقارير المؤهلة لثقة الأجهزة الأمنية تكتب بالأقلام الرصاص حتى يسهل تغيير أي شيء فيها.. أو محوه حسب الظروف. إلى أن تكتسب مع الأيام عراقة المستندات والوثائق والحفريات الخالدة.. التي جعلتنا اليوم نتعايش ونحن نتفاخر بأنسانيتنا التي بقيت غير قابلة للتغيير أو المحو أو التبدل عبر القرون بسبب تلك المرونة المذكورة التي ساهمت منذ (فجر الضمير) في بقائنا، رغم كل هذه الأسرات والحكام الذين نستحق - حسب نظريات مثل نظريات الذباب بل ويسببها - نستحق قبلهم الحرق بالنفط. والصلب على أعجاز الخيال الخاوية..

ما العمل إذن؟..

قد لا يهم محطة الإرسال المبكر هذه قصة حياتي مهما بلغت تفاهتها.. وقد يتهمونني بالحصول على تمويل أجنبى، إذا أعدمت ما كتبته عن الذباب ولم أرد العريون على الفور، ولست مستعداً أن أتحول على آخر الزمن إلى واحد من أولئك الذين قبضوا لكي يناضلوا، أو الذين ناضلوا ليقبضوا.. فأقع فريسة اليأس أو الحسرة لأنني ضيعت كل هذه السنين هباء.. دون تحقيق أي شيء.. دون أن أقبض أو أصرف.. ويكون على أن أضيع الباقي من عمري لو كان فيه عمر لكي أثبت

ذلك ويكون كل ما توصلت إليه في موضوع قتل الذباب من عدمه.. هراء في هراء.. أو على رأي ذلك الكاتب الذي أصبح فجأة نجما مشهورا في ضربة حظ أتاحتها له كاتب نبوي يعاني من عقد النقص والخوف من النسيان..

- خراء..

ويبين الهراء والخراء تضييع حقيقة الأشياء وتبدل الحقائق.. وتتضخم أو تنمحي الأسماء حتى تصبح الأفكار. أعظم الأفكار جديرة بالتفاهة !

• بعد أن فشل مشروع كتابة المسلسل الفكاهي واجهاض فرصة تمويل شريفة لمشروع قتل الذباب، قررت أن أبدأ بالكتابة عنك أنت بالذات، عن صحبة أربعين عاماً قضيتها، أتحرك بقدميك، أتكلم بساناك، تشدني إليك تلك الدماء التي انحدرت لكلينا عبر سلسل طويل من العبيد والحرفيين والجواري وال فلاحين والنحاسين من أجدادنا الخاطفين والمخطوفين الذي اغتصبوا (المحروسة) لأحقاب طويلة من الزمان، فعمروها مساجد ويرابي وفساقى وقصورا وبيوتا من الطين، وملاوها كتاتيبا وزوايا ويمارستانات وعراقانات وسراديبا يتعرفن فيها البشر من اللصوص والأبراء والسلطانين المخلوعين.

ولن يفزعك قراري أن أبدأ بك أبدا.. بل أنه أنا الذي سيفرز ويغضب وينفجر ويلجا إلى ذاكرة أجهدتها سنوات أكثر من نصف قرن من زمان لا أمان له، مزق عمري في حروب وغزية وصراعات دموية وحصارات خاضها الأهل والأصدقاء. (أنت أكبرهم وأقربهم إلى نفسي) قبل الأعداء. ولكن هذا سيكون أفضل لي وأكثر استسلاما لضرورات السن وضعف الذاكرة.. نعم.. وأؤكد لك أنني ارتحت كثيرا

لقراري هذا لأن ما يريطي بي سيسمح لي بالاعتراف بكل شيء.
وافشاء كل الأسرار التي جاهدتك طويلاً وجاهدتني لإبقائهما في دوائر
الظل من النفس وسيغرينى بتمزيق كل تلك الأقنعة التي رسمتها
قدراتك وعقربيرتك على وجهك في كل مناسبة، ولزلزلة ثباتك الذي
أعرف حقيقته وحقيقة الأرض التي تقف عليها، والتي صنعتها من
طמי كذب الطويل الجميل الذي يرسم لك - كلما وقفت تخطب
محرض العمال على رفض أمراضهم المزمنة وجهاتهم النبيل، أو وانت
تقود المجتمعات الجماهيرية والحزبية نحو نهاياتها المحتملة والمقدرة
كبالونات الهواء وصواريخ الأعياد - صورة زاهية زائفة في عيون
الجميع.. جميع الذي عايشوك وظنوا أنهم يعرفونك، نعم يا صديق
العمر سأتكلم.. بكل الصراحة والصدق الخشن الجارح، سأقول كل
شيء.. لأنني ما عدت أطمع في البقية الباقيه من حياتي إلا أن أعود،
بعد أن انتهى من ذلك وقد أصبحت نفسي - نعم نفسي - بعد أن غسلت
الأحزان كل الألوان الصناعية.. وزللت الاحباطات والهزائم كل
الاحتياطات، ولم يعد يكفي فشل مشروع التفرغ لقتل الذباب المتخلق
من مستنقعات الروائح الكريهة التي اتخمت بالجثث، إلا أن أموت
مرتاح الضمير، الضمير، الذي طالما سخرت منه في تعال باعتباره
مرض عقل (البرجوازي الصغير) المزمن والذي لا علاج له وإن الذي لم
يفارقني رغم إجهاده لي بكل ما أورثتني من أمراض خلقية وخلقية!
مجرد برجوازي صغير - أنا!

ضعيف ومتrepid وملتو.. أنا..؟ لكنني أعاهدك أنني سأكتب عنك أنت
باليذات بكل وضوح وثبات.. وعلى خط مستقيم كالصراط. راجيا بكل
هذا أن أتحرر منك بعد نصف قرن أو يزيد.. أقطع كل حبال التبعية
لنك.. والإنتقام من نزواتك.. أن أمرق عن جسدي جلدك الكريه، وأنزع
من قلبي نبضك المزيف وأطرد من عروقي دمك الملوث.. لأشهر بعدها
قلمي في وجهك حاداً وحاسماً كسيف (الزناتي).. فاضحا قارحا (كاير)
ابن (زنوبة) الآخرس البيسط الذي كان تكتتك في الزمان الجرى أيام
صباها.. عندما كان يخرجه لك ولغيرك عامداً - منتصباً معوجاً..

مهداً وملوحاً به لكل من يحاول السخرية منه أو إغاظته.. مثيراً زوبعة من الضحك الفاجر والأمنيات الخجولة وراء الأبواب نصف المغلقة.. ومفجراً نوازع الحسد في قلوب النساء مدعيات الخجل..

نعم في وجهك أنت بالذات سأفعل.. سأشهر قلمي لكى لا أظل بعد هذا العمر الطويل المستباح ظلك وأسيرك.. لتحررني منك الحروف والكلمات مثلما حررت بعض البشر من عصور سحيقة يوم حرضتهم القراءة والكتابة على استزراع الدلتا. التي لم تكف طوال كل هذه العصور عن الانبات..

على بذلك أملاك قبل فوات الأوان أن أتحدى المجهول الذي ظلمسته حولي بأحزان هزائم صباحات (الخامس من يونيو) التي لم تتوقف أبداً عن تكرار مراتتها في دمي وحلقي على مدار سنوات طويلة قبل (بيروت وعدن وبغداد) بزمان سحيق.. واكتسب قدرة لا يُخترق الحصار الذي دفنتني فيه وطوقتنى بجمائله النبيلة والشريرة طويلاً.. وأدمر السلاسل التي كبتنتى بها.. وأزيح غمامات الكذب الذي أغرقتنى في لجته اللزجة..

لترحل عنى.. وإلى الأبد..

لأن ليس قبل أن تقرأها.. كلماتي.. عنك وفيك وإليك.. كي تكتسب معناها وقوتها السحرية القديمة.. ول يكن لها ما أرجوه من معنى.. وإنما فلن يكون لكل ما عشتُه أو قلته نثراً أو شعراً خلال نصف قرن طویل كنت تتملكني فيه - أي جدوى أو فائدة.

• بعد منتصف ليل الثالث من صفر الذي وافق الثاني عشر من
أمشير في العام الذي جاء رمضانه في عز حر (أبيب)، وقبيل موعد
صيغات الديكة التي كانت ستبشر بفجريوم الأربعاء - الذي عادت في
اليوم السابق عليه - عربة التراحميل إلى سجن (المنصورة)، حاملة
المتهمين الثلاثة (سمير عبد الباقي) الطالب بكلية الزراعة وتاجر
المانيفاتورة (أحمد يوسف) والترزي البلدي (عبد الحميد عبد الرزاق)
الذين استدعاهما رئيس نيابة أمن الدولة بالقاهرة (سمير ناجي)
ليستجوبهم بنفسه حول مجلة سرية باسم (صوت الفلاحين) كانوا
ينوون طباعتها وتوزيعها. معرضين أمن الدولة والنظام العام للخطر
ومحاولين قلب نظام الحكم بالقوة المسلحة، وتهديد السلم العام ومنع
مؤسسات الدولة من القيام بوظائفها الوطنية. وبخبرته المعهودة
وذكائه المشهود له به، إسْطَاعَ أن ينتزع ببساطة من المتهم الأول اعترافاً
ضمنياً بأن الأوراق المضبوطة مكتوبة بخط يده، ذلك حين هدد
باستحضار أوراق امتحاناته من الكلية أن هو استمر في محاولة تغيير
خطه الممضوحة. إستفزه ليتحداه - فكتب المذكور واقعاً في الفح دون
تعهد تغيير خطه كما فعل في (مباحث المنصورة) - مما أزال شكوكه
وشكوك خبير الخطوط. وتأكد لهما أن المتهم هو محرر أوراق تلك
المحللة المحظورة بالفعل...! فانتشى منتصراً وأعادهم للسجن وابتدأ في

تدبيج قرار الاتهام مطالبًا بعقوبة أقصى العقوبة حسب المادة (٩٨) من قانون العقوبات.

ويينما كان الشبان الثلاثة غارقين في النوم إرهاقاً وتعيناً في زنازينهم الانفرادية.. أطلق (حمادة المصري) ثلاث طلقات فشناك من بندقيته، من فوق مدينة الجامع الكبير. ثم كبر وأعلن الخبر الفاجع الذي أيقظ قرية المتهم الأول (ميت ساسيل) التي تقع على بعد «٥٠» كيلو متراً شرق مدينة المنصورة - عن بكرة أبيها - من علو البلد وعزبة السلطان حتى واطى البلد وترعه (الجوابر) - من عز النوم.

انتشر الخبر انتشار الدبابة في موسم البلح.. حط على أسطح الدور، زن كالنحل الصاير على أسوار الدواوير والزرائب.. تسلل كالسحالي من شقوق النوافذ والطiqان زاحفاً تحت أعقاب البيبان المخلعة.. هاجم النائمين على ضهور الأفران وفي بطون المداود.. أقلق منام المرتاحين على السراير وانقرفصين على الكتب البلدي أو على المصاطب وصناديق النوارج، حوم كالدبابير الصفراء ياسوع البهائم ويضيق الحمير كالقراد الرزل، ومثل الفاش القاتل أفعز الدجاج ونكد على الحيوانات في الأحواش المستسلمه لليل شتوى قارس مظلم لم يظهر له قمر..

زعق رجل من أهل البركة :

- يا خرابك يا بلد.. الشيخ (مقبل عودة) مات يا أولاد..

صرخت امرأة تحت طرحة ممزقة :

- الرجاله عدمت من بعدك ياشيخ (مقبل).

شاب فلاح قال ليقايا زيain قهوة النادي الذين يستعدون للمغادرة وهو يحاول إخفاء نبرته الساخرة:

- وهي البلد دي ح تقوم لها قومه تاني يا ناس.. مش واجب تعلن

الحداد يا عم أحمد ..

النسوان صحت على النداء الفاجع.. تجاوين معه بالصوات والصرخ الأشد فجيعة وحدة، وهن ينفضن عن صدورهن الصبيان القابضين بأسنانهم (كالعلق) على حلماتهن الناشفة.. ويزحن الرجال القافزين فوقهن كخيال الموالد.

الفقيرات منهن.. نهضن ملهوفات بحكم العادة ينتزعن الطرح والشيلان السوداء القديمة من مطارحها على الأوتاد الخشبية المدقوقة في لحم الحوائط الطينية.. أو الملكة في (الخرستانات) الغائصة في عمق طين الجدران القديمة.. أو المتروحة على شبابيك الأسرة النحاس الصدائة.. أو المعلقة فوق الحبال المتداة ما بين جدران المقاعد المبنية بمالح أو الحلو. طرحنها على رؤسهن وهرولن مسرعات كي لا تفوت فرصة أداء الواجب والمشاركة المفترضة في طقس وداع سيد الرجاله، وشيخ مشايخ البلد ورئيس الاتحاد القومي. وإثبات حضورهن بالمناحة التي ستفجر حرارتها الحزينة الشوارع والحرارات - جوقة فرعونية للحزن الليلي - صارخات نادبات نائحات مستجيبات لغرق الأحزان الخاص والألم القديم، ريمما قبل أن يتتأكد بعضهن من حقيقة الخبر.

أسرعن يشاركن في الصراخ المفاجئ الفاجع حاسرات الرؤوس مزيحات شيلانهن وطرحهن التي اصررن على ارتدائها من لحظات، كاشفات عن الضفائر المحولة الملبة أو المعقودة المترية أو عن شعر مهوش أكرت مجعد أو سائح خشن هائش مكتكت منقوع في العرق والتراب محمل بنفاثات الحقل والوقيد.. كاشفات للأعين الغريبة مالايراه سوى الأزواج، في ظلمة المندار أو الأركان الرطبة للمقاعد، وهم لا هين عن قبحه في غمرة البحث عن موقع فك حصر لذاتهم الحارقة!

بعضهن شقت قلوبهن فجيعة الموت المفاجئ، ففجرت ينابيع حزنهن الدائم وجيعتهن الخاصة، فخرجن يبحثن عن مواساة المشاركة، في حزن لا يخصهن..

كثيرات دفعهن الواجب والطبع والعادة الحزائني، للمشاركة تلقائياً في كورس الشجن العام.. بينما أخرىات خرجن مدفوعات بحب استطلاع جامح، يشوقهن لعرفة السبب في موت هذا الرجل الفحل العلنية، التي كانت توحى أنه سيعيش دون أدنى شاك - باتفاق مع السماء لابد - حتى يبلغ المائة.. إن لم يكن إلى الأبد..

- رينا قادر وكريم.. خده أخذ عزيز مقتدر.. هو المنتقم الجبار.

مجموعة النساء العابرات أمام باب (فرج الله) بنت (فريخه) لم يعجبهن ما أظهرته شماتتها من غل وهي واقفة كالنمرة أمام باب الدار المخسوف في طين الشارع تقاد تزغرد منتشية.

صفعتها واحده بغرفة كف من عفن الأرض، وقدفتها أخرى بشتيمة واضحة رداً على شماتتها الفاضحة..

- إتلمي يا مفضوحة.. يا..

- ح تشمتني في الموت يا بنت الكلب..

- موت.. تعرفوا إيه عن الموت.. يا قحبة منك لها..

حاولن مهاجمتها حين أشارت بذراعها وكفوفها اشارات عيب مكشوفة، لكنها رزعت الباب في وجوههن.. فخمسن الخشب ودقن عضمه.. ثم ذهبن لحال سبيلهن مفضلات اللحاق بالקורס العام..

زعقت بنت (حميده):

- ح تعمل إيه (المنيه) بعدك يا شيخ مقبل..

ردت عليها بنت (سعده):

- يا لهوي.. قطعوا الرجاله منك يا بلد بعده..

من فوق السطح زعقت (فرج الله) وكانت قد صعدت لتكون بعيدة عن متناول أظافرها:

- محروقة قوي يا (بنت سعده).. ح يوحشك بتاعه يا لبوة..

شجعت لهجتها الجريئة المتشفية أمراً أخرى. كانت تقف في فرجة بيت مستور غير مهتمة. فقالت وهي تتقصع مندهشة لكل هذه الحرقة المفتعلة.. عندما صرخت أحداً هن وكأنها تقنع نفسها بضرورة ما يفعله..

- ده الشیخ مقبل یا بت الرفضی..

صممیت شفتیها المرأة المستورة وقائلت ساخرة :

- رضی الله عنہ.. ما تتلمنی یا بت انت وهی واتحشموا..

جاء صوت (فرج الله) مرة أخرى من أمام الباب

- نسوان ملاديع بدل ما یزفوه بطلبة ويجرسوه..

اطمأنت للمساندة فنزلت ووقفت متهدية امام باب الدار المخلع..

وكانت ضفة أخرى من النسوان قد حصلتها فلم يعطينها فرصة

للهرب، لطممتها إحداهن بدلاً من لطم خديها، ثم أخذتها من

ضفائرها فلوتها على الأرض.. لكن (فرج الله) كانت عفية.. فتخلصت

منها ولاشتها وشدتها ويركت فوقها وقد تعرت تحتها تتلوى فأخذت

تقرضن لحمها العاري:

- شيء الله يا شيخ (مقبل).. أیوه يا أختي.. ما أنتي وأمك من

محاريته يا بنت العامشة يا أم ریحة عفشهه..

ازاحتها الباقيات من فوق المرأة وخلصنها من خرابيشها ودفعها

بعضهن إلى حلق بابها وهي تصرخ..

- غار في ستين نصيبة.. أبو ديل نجس..

جرأتها جعلت النائحات الباقيات يهاجمنها معا في قسوة..

خرستها واحدة في رقبتها جابت دم.. وأخذت هي تلوش وتهوش دفاعاً

عن نفسها.. لكن أخرى سهتها وتمكنت من شعرها لترقعاها ثلاثة قلماً

ثقيلاً.. أضاء سراجاً تحت جفونها.. فجنت وأمسكت بأورمة خشب

مكسورة كانت وراء الباب وطاحت فيهن فلذن بالفرار بعد أن انتزعت

واحدة خصلة من شعرها وعضتها أخرى في كتفها عضة عميقه..

جعلتها تبكي.. لكنها ردتهن وشتت جمعهن فأشرن السلامه وأخذن

يقدفنها بكل ما تطوله أيديهن من نفايات على الأرض المعتمة، وهن

يحتمین بانحناء الحارة المفاجئة.. يلمزن ويلاقحن، ويشتمن أمها

مطرح ما غارت.

حرق قلبها التشهير بأمها فبكت في قهر وهي تصرخ:

- اسم الله على أمك انت وهيه.. يا بنوت الكلب منك لها.. إلهي وانت

جاهي تفخضهم يا كريم.

مجموعة من نساء التراحيل وزوجات وبنات الهمّل من عزبة الغجر وحواري السوق والمزلقان، وجدن في الزفة الحزايني فرصة للاحساس باللهمة والجماعية. وحدت بينهن المشاركة والأمل في فرصة للتواجد عند اللزوم للحصول على نصيب من خير هذه المناسبات السمينة. فبالغهن في الاندماج وان كانت مشاعرهن في الحقيقة ليست على هذه الدرجة من الحرقة التي يبدئنها في اخلاص.. وأحس بعضهن بأنهن زودنها مع (فرج) وكلهن يعرفن سر غلها، ولسن بعيدات عن أسبابها وفهم دوافعها ومع ذلك زدن في الصراخ، يدارين به انعدام الرحمة في قلوبهن ويغطين على هزيمتهن أمام حرقتها الحقيقية..

كلهن يعرفن قصة طردها ذات ليلة شتوية باردة مثل هذه، كالكلبة من جنة الشيخ (مُقبل) ومملكته بعد أن كادت تفوح بسببها رائحة الفضيحة الكارثة.. هي نفسها لم تخبر أحداً عن سرها.. ولا عما جرى معها، لم تفتح فمها بكلمة، رغم ما وقر في قلبها من جمرة قهر الحرقة تكوى صدرها كسلوب نار.. وليس هناك سر له حرمه في (ميت سلسيل):

- يا بنوت الكلب.. كلنا خرا وخرسنا.. حطينا جزمة قديمة في حلقنا و..

خنقها البكاء ولم تكف عن الهطسة بصوت عالي احياناً.. والبرطمة بما لا يفهم طول الوقت.. لكن الصراخ غطى على صوتها الذي انزوى معها في عتمة الدار.. وكسر نفسها اكثر صوت (حماده المصري) الذي عاد يرتل فوق المدنه بصوته الشجي، يعيد في وقار إذاعة الخبر.. فراحت تعض في الأرض..

- حتى أفت يا (حماده)..

(حماده المصري) لا يصعد عادة إلى المؤذنة العالية جداً، والتي تعتبر أعلى مئذنة على الخط إلا في المناسبات الكبرى، وفي رمضان،

كل أطفال القرية من أجيال، كانوا يتجمرون أسفل المدنة وعلى السطوح ينتظرون أفول الشمس ثيبروا معه بالأفطار. ويشاركه الكبار منهم متعة ابتهالات السحور خاصة في العشر ليالي الأخيرة..

من الشهر الفضيل تريضا بطاقة القدر..

عصر الأسى الناضج من صوته قلب (فرج الله) فعوت من الدهر..
(حماده) مثلها وحداني وغلبان حصل معاه أسود مما حصل معاه..
ل肯ه لم يطرد.. طاطي، فظل السقا الخصوصي لبيت الشيخ، وكتم في قلبه خواطر أشد من الرغبة العارمه الشيرفة الغل التي تأكل قلبه
والتي توزها الآن لفخض الجميع.. بان تلحق به على المدنه وتطلاق زغرودة طويلة فرحانه، تغطي على كل هذا الصراخ وتطفى لها ليب غيظها، وتفسد ابتهالاته المنافقة وتغطي على رصاصاته الفشناك..
لكنها جبنت ودلقت ما بقى في البلاص من ماء بارد على نافوخها، وشهقت عندما غمر كفها الدم الذي سائل من جروح خرابيش النسوان على رقبتها الطويلة.. صرخت في الجدران القاسية الكالحة المتآكله.
ونهرت ما تجمع أسفلها من أشباحها الخاصة وشياطينها المألفة
الذين حاصرتها عيونهم شامته أو لائمة أو متعاطفة:

- عشان تبسطوا أهوا راح في داهيه لجهنم يا أولاد الكلب. قبل ما اخد تاري واشفي غليلي، ربنا ينتقم لي منه. ومنهم ومنكم.
خنقها البكاء. وارتعدت امام نظرات لومهم المتعاطف واتلهت على عينها.. تكومت تعوى على الحصيرة في ركن مظلم في عمق القاعده الخالية.. ترتجف وتشهد من الغيظ والبرد والرعب، الذي ضاعفته قطرات الماء البارد تتسلل لتلسع ببرودتها فوران جسدها الجميل المهان المشتعل كالجمر الحبي..

الظلام الخشن الذي تعود ابتلاعها ابتلع معها هذه المرة رعب لعناتها الحارقة.. لكنها من عمق سردابها كانت تتبع في قهروغل موجات الصراخ المحموم، تنبئ فجأة من أماكن متفرقة بعيدة وتنجاوب بصياح الديكة التي خرست ولم يسمع لأي منها حس هذه

الليلة.. إذ أنها لو صاحت من الفزع والدهشة حين يخرجها الإلتياع الحاد الجارف عن مهامها الروتينية الإلهية، لما انتبه لها أحد أو صدقها..

كانت موجات الصراخ تتلاعّب وتتصاعد ثم تخفت لتعود، أكثر إثارة للخوف، منها استجابة للحزن الذي خيم كسحاب شتوي قاتم، يغطي فضاء القرية المعتم بطبيعته ثم تنفجر، لتتتابع وتندمج وتتكاثف في دوامات تدفعها رياح مجهرولة لتلتقي فوق دار (فريخة) بالذات، عامة تضاعف من غيظ (فرج الله) ولوعتها.. وتدفعها للقيام فجأة مختربة زحام أشباح موتها وعفاريتها لتضرب الباب برأسها والجدران بقبضتها المعروقتين المتشنجتين حتى تتعب.

وتسقط مستسلمة لمن يرث منهم في حنو على ظهرها أو مرتبة ممن يكتم أنفاسها محاصراً عارها، يحرقها بعيون تطق شرار، فتجز على أسنانها حتى تحس بطعم الدم المر.. الذي نزفته يوم فض بكارتها برضاهما بعد أن دوخته وامتنعت عليه حتى جنته، وفقدته وقاره، وشككته في مكانته التاريخية. على غير ما تعود ممن خدمن في بيته (حتى أمها). واضطررته خوف الفضيحة أن يكتب لها ورقة لترضي بالحلال العرفي كانت الوحيدة التي هزته وهزمته، جسدت أمام عينيه فحولته انتهارة. ويوم بدت بطنها تتکور لم يهنا باستعادة ثقته في نفسه.. فهم لم يسمحوا لثلها أن تخدش هيبة أواخر أيامه..

حين اكتشفت زوجته ما جرى لم تفاجأ. قطعت الطريق بحزم على ما يحتمل أن يجري.. استفردت بها هي وبناتها وبعض ممن تعودن حفظ أسرار أولياء النعمة.. كتفوها ونكلوها بها ومرموطها وتケفل عود الملوخية وتراب الفرن والرفس في البطن.. والعبث بكل وحشية في فتحاتها السرية بإسقاط جنين الحرام الذي كان كفيلاً ان يكلل العجوز بالعار أواخر أيامه..

هو لم يفعل شيئاً - انزوى لأول مرة في حياته مقهوراً عندما أجبرته زوجته أن يتأمل ابنه النطفة، قطعة اللحم الهلامية التي أغرق دمها الدار ليخرسه ويشله على سرير المرض - أجبره قهره على الخضوع

والاستخزاء والتوارى وكتم آهه كمده عاجزاً عن منعهم من حملها بعد دفن حملها، ليلقوا بها تحت ستار الليل إلى جوار أمها، مع ما تيسر من زاد وزواد وكمية هائلة من الوعيد واللعنة جسدت المئات من أسباب الرعب والفزع أجبرتهما على ابتلاء حسرتهما.. ومعايشة عزراائيل واتباعه الذين احتلوا الدار من يومها.

وبعد، انتقال أمها متعجلة رحمة ربنا، أصبحت روحها هي الأخرى طيفاً في معية جنياتها وشياطينها الرابضين في أركان الدار المظلمة وفي زواياها الخفية، يشاركونها الطعام والشراب الشحيح ويؤنسون وحدتها الشرسة..

- ابن الكااااااب شاهدين عليه ١

صرختها الكليمة صعدت من صدرها صريحة، لتلحق بمجات الصراخ الأخرى وتضيع في زحامها.. عبر سطوح القرية ساعية للوصول إلى أذني ابن الميت الكبير (حمدي) الذي داخوا عليه منذ الصباح ليستدعى الأطباء ولتكون إلى جانبهم ساعة تخرج الروح.. قلبوا عليه البلد وقد بدت النهاية واضحة ثم كان أن استدعوا الطبيب من (المنصورة) بعد العصر ليقطع الشيخ النفس بين يديه قبيل منتصف الليل.. وأضطررت الأم أن تذيع خبر موت الشيخ في عدم وجود أكبر أولاده لتقف البلد على رجل ويجافيها النوم.

قالت أمه :

- وهو كان أمتى سد فساعة حوجة ١١

بينما كان هو غاظساً في مكان مجهول منه مجافي تأكيد التزامه بطريق أبيه، ونشر تقاليد فحولته وكانت أمه كالآخرين الذين راحوا يخمنون سبب اختفائه. وإن لم تعرف مثلهم في أي (حرارة) هو ينافض في السر لاثبات انه ابن أبيه العوام.

عارياً نط (عطاط) القزعه كالضفدع مفروعاً من الطلقات. وما تبعها من صراخ ملتفاع من فوق مراته اللحيمه بنت (ستين) منزلاقاً على

صدرها المهول الذي يتذلّى على جانبي بطنها الشاسع كشوالين. شاء
كعبه المقوش لحم ذراعها الهائل فنطرته عنها وهي تصرخ غاضبة،
تدرج فرعاً إلى الأرض كقرد مسروع يبحث هنا وهناك في زبطة
مفعولة عما يستربه مؤخرته، جاعلاً من كل ذلك حجة للهرب بجلده
من واجباته اليومية الصعبة، تحت ستار لهفته المفعولة لاستطلاع سر
المصيبة التي روعت البلد.. بينما أخذت هي تزوم غضباً لضياع
مجهودها في دفعه وأغوايه منذ أذان العشاء. محاصرة اياته كي يمتنعها
وإذ تأكد فشلها في إعادته، راحت تلعن الذي كان السبب، وتسب النسوة
المفضوحات اللائي أقلقن راحة البلد..

انكتمت الغازات في بطن (زكي الرزوظي) كعادته عندما تفاجئه
النفحة فانكتم نفسه ونهج بشدة واتحشر الغاز السام في زوره، لولا ان
امرأته (أم قلالته) رفسته رفة خبير وطبيب أراري، فضغطت الريح
المحسورة في مصارفه لتخرج مدوية زاعقة بدلاً من طلوع روحه ومותו
مسموماً بها..

(الشنقيطي) لم يخل كل ذلك عليه ولم يهتم ورفض أن يعطي هراته
الفرصة لكي تفر من لحظة توهجه التي دفع فيها التمن مقدماً.. ريال
فضه كامل.. فهو إن استجاب لها كانت خسارته مضاعفة لا تعوض.
لقد استعد لامتناء صهوة النافرة منذ أسبوع واضعا القرش على
القرش كي تلين وتسمح له باقتحام قلعتها محتملة زخات منجنيقة
الضخم بطل أحاديث النسوة السرية، ومنثار جدل الشبان الفارغين
الحاملين بالمستحيل.. ولذا تجاهل محاولتها للانسحاب وظل يرهزها
في حزم وعزم وهي تصرخ تحته مرسلة في نوعية ممتعة صرخات
مشاركتها اللذيدة لصيحات النسوة اللائدة على الأسطح..

العمدة (فخر المنصور) ايقظوه بالعافية رغم تعليماته الصارمة
بعدم إيقاظه حتى لو اتحرقت البلد عن آخرها، فقام مفروعاً كمن رأى
كابوساً. وأخذ يجاهد لرفع رأسه الثقيل المشدود لصدره بلواجم من
الجلد المحروق تجذبه وتجبره على الإنحناء الدائم بوجهه للأرض،

مطلاً نظره إلى الإمام بضعيوبه من تحت حاجبيه كثين مرفوعين
تحت تجاعيد جبهته، وكأنه ينذر من يخاطبه وجهه بعقاب
شديد، لو آثار كل ذلك ابتسامته أو أطلق ضحكاته.. ظل يلعن أبو
الغفر الذين أقلقو راحتة بالدق المتواصل على الشباك فوق رأسه.. لأن
أحداً منهم لم يستطع أن يتحمل مسؤولية ارجاء إبلاغه بخبر وفاة
(الشيخ مقبل) بحجة أن الصباح رياح..

(على أبو شعراوي) كاد ينكفئ على وشه على العتبة، وهو يبحث
نصف نائم ومهوج عن بلغته في الظلام.. تعثر في ذيل الجباب الذي
لبسه بالقلوب.. ثم في بردة الحمار الملقاة في إهمال على باب المندرة
- كان موجوداً عندهم لوقت متأخر وتوقع أن يخرج السر الإلهي في
الصباح، ونصحته زوجة الشيخ التي هي بنت عمه لزم، أن يروح يرتاح -
كانت تريد أن تكون وحدها معه عندما يموت. ويا ليته لم يسمع
كلامها.. فقد أيقظوه ولم تكن عيناه تروحان في النوم..

وها هو يعود أكثر تعباً مما كان عليه.. لكنه حمد ربنا لأن أحداً لم
يسقه من أولاد (عبادين) الخارجين على ندهة راجل واحد، والميت
خائف من بعيد وأولاد (الأزرق) وأولاد (عوضين) ونسوانهم.. وعلى
الناصية التقى (بشاكر أفندي) و(على أبو علي) وناظر المدرسة الغريب
وكثيرون من رجال البلد. كيف كان موقفه سيكون لو سبقوه، ولم يكن
هناك الكل في مثل هذه الظروف يحسبها - في الفاجعة لا تنسى
الخلافات بل تشحن. الموت وإن قرب المسافات بين الخصوم.. يجعلها
أكثر حساسية بين الأقارب. والميت نسيبه الأقرب. الموت يسن شفرات
الأسنة ويؤجج عواطف الكل حتى الأغراب، على جمر حجارة المجاملة،
ومهما كان اللي في القلب في القلب.. الموت يفتح عين الكل على الكل.
ويستنفر وسائل القرى والجيرة والنسب، والعداء أيضاً.

كيف كان سبب غيابه وهو قريب والنسب.. فتح عينيه بضعيوبة
وندم لأنه لم يصب بلاص مية على رأسه.. قبل الخروج.. الكل يعزيه

ويغمره بنظرات العطف والمواساة.. فكان يغمض عينيه مستجيناً
ويتمنى أن يستطيع التثاؤب وان شاء الله تبقى فضيحة.. لكنه استطاع
المقاومة والثبات حين فوجئ بكل هؤلاء الناس محبيطين به تطاردهم
وتلاصقهم صرخات النساء فوق السطوح وعند المفارق.. البلد على
كبيرها واتساع مساحتها تمت عائلاتها بعضها لبعض بصلة ما، أعمق
وأخفى من صلات الدم والمصالح.. الموت حتى في سن الثمانين يكون
فاجعة كبرى تعمق هذه الصلات في قرية مثل هذه.. وفي لحظة موت
رجل مثل هذا له هيبة ومكانة وسمعة كتلك..

السهرة أمام دكان (محمود شطا) كانت على وشك الانتهاء بل مضى
البعض بالفعل (يوسف عبد ربه) و(عبد الباقي افendi) واطفاءاً صاحب
الدكان وأبور الجاز وأزاح عدة الشاي. حين فاجأته الطلقات وهو ينزل
الكلوب، تسائل الذين بقوا ليساعدوه على إغلاق الأبواب..
- الواد (حماده) ده اتجان.. ولا فاكر رمضان بكره..

تنح الشيخ (محمد ابو عبد الله) برقبته وقال:
- لا.. لا.. فيه صویت من ناحية البحر..
ضحاك أحد الطلبة..

- يكون صاحبكم توكل على الله..

فعلق آخر:

- لا.. عمر الشقي بقى

لأن الفلاح النظيف (الكلين فارمر)، (عبد الرحمن) كما يحبون
مداعبته قال في لهجة من يعرف كل شيء:
- الدكتور جه م (المنصورة).. أخصائي استشاري جامعي.. من ساعة
العصر..

اندفعت بعض النساء من وراء المدرسة مهرولات صارخات، يلوحن
بالطرح الكالحة، ويلطمن وجههن فقطع صوت (محمود شطا)
الطريق عليهم.. فوقن متعددات في خوف يجنبه:
- فيه ايه يا بنت القحبة.. انتي وهيه؟..

- الشیخ مقبل ماماات یا عم (محمود) ..

- عما الدب، وده يخليكو تسخموها روحكم كده يا بلد هبلة..
قالها (محمود شطا) وهو يعيد الكلوب إلى مكانه بعد أن أعطاه
نفساً شديداً للحدد نشاطه.

لَا حُوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.. أَخْيَرًا.. مُسْكِينٌ، اتَّهَدَ فِي أَخْرَى عُمْرٍ..
اتَّخَذَهُ فِي عَزَّهُ..

وأخرج الكراسي مرة أخرى، ناولها من ينوي استئناف السهرة، فهذا الحدث يعني أن في الأمور أمور.. وبما أن المنتدى له في هذا باع فلا بد من استئناف الجلسة فالليلة على ما يبدو ستكون ليلة طويلة مالهاش آخر..

الذين غادروا عادوا على الفور..

ساخته ای

- القيمة في حملك انشاء الله ..

- ولع الشاي يا (محمود) دي باینها صباحي الليلة..

وكان (محمود) قد شطف العدة بالفعل، وجهز البراد وابتدأ في إشعال الوابور الذي لم يبرد، بمجرد أن أعاد الكلوب إلى الخطاf المسود بالهباب، المغطى بطبقات من الذباب، لم تقلقاها الحركة ولا الصوات. واستعد لليلة طويلة لن يكف فيها الكلام والمناقشات الحادة عبر البناى الممزق، الذى أكل الزمن غطاءه الصاج فوق خشبة العتيق الذى تآكلت عليه سنوات طويلة محملة بهموم (ميت سلسيل) وأحلامها المحظمة منذ ثورة ١٩٥٣.

قهوة النادي هي الأخرى أعيد احتلال دكّها مرة أخرى. وطلب (محمد أبو علي) جوزه تانية متوصلاً لأنْ (أحمد النادي) كان قد انتهى من تنظيف وتسليك كل الجوز وجهزها للنوم في حوض الغسيل المتجدد المياه، لذا نظر إليه غاضباً رافضاً.. القهوة لها نظام وطقوس ولا تسامح في اختراق قوانينها.. يعرف (أبو علي) هذا جيداً ولكنه يعرف نقط ضعف (عم أحمد) فتقدم منه متقمصاً الدور.. وفي خطوه عسكرية تقدم نحو النصبة وضرب كعوبه في بعضها، وفي الأرض وهو

يرفع أحدى الجوز فوق رأسه:

- تمام يا أفندي، الليلة محتاجة عمرة دماغ.. الليلة غير كل الليالي.. هل أتاك حديث (مقبول).. روق يا (عم أحمد) واتساهل شوية عشان خاطر (الشهيد) !

لـف حول النسبة وأخذ رأسه بين كفيه الكبيرتين وقبله في جبينه.. وهو يهمس..

- لو كان (سالم) هنا كان حيبقى في الأمور أمور- ودي ليله مش للنوم- سهر للصبح..
أخفى (عم أحمد) ابتسامته.. التي غرغرت عينيه عندما حلفه بالأستاذ (سالم).. وكانت هذه علامـة رضا تكفي لأن يتطلع أكثر من واحد لإحضار وتجهيز الجوز بكل احترام وتقديس.. ليعدوها إلى العمل..

ولاحت منه لفتة سمحـت للكل باستئناف ما كانوا فيه، واعطـتهم اذنا بـرفع أصواتـهم عندما فتح الرادـيو عـلـق أحـدـهم..

- أيوه قرآن ومزيـكة عـسـكريـة..- قرآن وعـسـكريـة..
لكن الأسطـى (عبد السلام) ضرب حـجر الطـاولة قـاطـعاً الإـرسـال متـحدـياً من كان يـنـازـله من قبل أن يـسـتأـنـف العـشـرة.. ودبـتـ الـحـيـاةـ فيـ القـهـوةـ وكـإـنـتـاـ فـيـ أولـ اللـيلـ..

- دي ليـلةـ مشـ فـايـتـهـ أـهـيـ جـتـ منـ عـنـدـ رـيـناـ.. كـمـلـ العـشـرةـ بلاـشـ حـمـرـقةـ، المـوـتـ عـلـيـنـاـ حـقـ، لـكـنـ الـغـلـبـ وـاجـبـ.

- لكلـ نـفـسـ نـهاـيـةـ ولـكـلـ لـقـمـةـ آـخـرـ.. حـكـمـةـ رـيـناـ.. مـاـفـيـشـ كـبـيرـ عـوـتـ.

تمـتـمـ (مجـاهـدـ شـطاـ) وـهـوـ يـقـبـلـ تحـديـ منـافـسـهـ اللـدـودـ فيـ الدـوـمـيـنـوـ.. (محمدـ أـبـوـ عـلـيـ) الـذـيـ زـعـقـ مـتـحدـياـ..

- الفـاتـحةـ يـاـ اـوـلـادـ.. رـيـناـ يـفـكـ سـجـنـهـ (سـالـمـ بـنـ عـبـدـ الـقـادـرـ أـفـنـدـيـ)
وـ(ابـنـ عـبـدـ رـيـهـ) وـكـلـ الـلـيـ زـيـهـمـ وـلـاـ يـشـمـتـ فـيـنـاـ عـدـوـ وـلـاـ يـأـذـيـنـاـ فـيـ حـبـبـ..

فتتحت أبواب الدور واحتلّط بكاء الأطفال المفروعين بصيحات الرجال المهرولين والنسوة الصارخات المفجوعات.. بحق وحقيقة أو على سبيل المجاملة والمشاركة..

الكل يسلم الأمر لله.. ويتشهد بصوت عال.. وأصبح الله قريباً جداً يسلّمون له الأمر في رضا ووهن كالعادة أمام الموت. البعض يقرأ القرآن.. ويستنزل رحمة الله نوراً على المسلمين موتى وأحياء.. واحتلّط كل ذلك بصياغ المندفعين للقيام بالواجب فيما تستلزمها المناسبة من أمور روتينية.. وكان اتجاه الخطى نحو بيت الشيخ عند البحر عبر الحواري والدروب النازلة نحو الشط حيث الكافورات السبع الشهيرات مأوى قبائل لا حصر لها من الغريان والصقور والحدادي والعصافير واليمام أيضاً.. استيقظت كلها فزعة هائجة تحوم وتحط وتعاود الطيران في الظلام وهي تصرخ مشاركة أو محتاجة منذ انفجر الكون حولها مع أول طلقه فشنّك أطلقها (حماده المصري) لتقلب ليل القرية الساكن المعتم لنهايـم مظلم طويـل وشاق..

المساحة المنبسطة بين الكافورات السبع وأمامها حتى جدار البيت العتيق فرشـت بالقش الجاف بسرعة.. وتجمـع الخلـق خارـج وداخـل الحوش وعبر الباب المفتوح.. كثير من الفلاحـين والتلامـيد الأقارب وعدد من أعيان القرية وشيوخها حضـروا على عجل وكلـهم يرتدي قناعـاً الحزن الملائم للدرجة التي يريد بها أظهـار عمق وحمـيمـية العلاقة مع الراحل الكـريم..

رـصـت كـرـاسـيـ من مـخـتـلـفـ الـأـنـوـاعـ وـالـأـشـكـالـ وـاـنـتـظـمـ حـولـهاـ صـفـانـ من (الـكـراـويـتـ) الـخـبـرـ جاءـتـ جـمـيعـهاـ منـ الـبـيـوـتـ الـمـجاـوـرـةـ عـلـىـ الـفـورـ.. استـقـرـ الـبـعـضـ عـلـىـ الـكـرـاسـيـ كـلـ حـسـبـ ماـ يـتـصـورـ مقـامـهـ. الـفـلاحـينـ خـدوـهاـ مـنـ قـصـيرـهاـ وـجـلـسـواـ عـلـىـ (الـكـراـويـتـ) وـأـقـعـىـ بـعـضـهـمـ مـسـتـنـدـينـ عـلـىـ الـحـوـائـطـ الـتـيـ تـنـزـ الـتـرـابـ وـالـرـطـوبـةـ (الـعـوـضـيـ) ظـهـرـ كـالـعـادـةـ دونـ دـعـوـةـ.. رـفـعـ نـفـسـهـ عـلـىـ أـوـسـطـ (كـراـويـتـةـ) بـعـدـ أـنـ خـلـعـ بـلـغـتـهـ الـقـدـيمـةـ الـمـرـقـعـةـ ذـاتـ النـعـلـ الـمـتـرـاكـبـ السـمـيـاـكـ، نـفـضـهـ باـعـتـنـاءـ وـحـرـصـ شـدـيـدـينـ..

وضمها في وقار واحترام.. مهتما أن ينفض أسفليها مما قد يكون علق
بها من قذى وطين.. ثم وضعها إلى جانبه وهو يرث عليها مطمئنا..
كثيرون كانوا يراقبون طقوسه مع البلجة وهم يخفون ابتساماتهم التي
لا تنساب الجو.. وأخرس تعليقاتهم الساخرة انطلاق صوته الكثيف
المشروع يتلو ما تيسر من آيات الذكر الحكيم مضيفا على المكان
والزمان التوشحين بالظلماء.. طابعا غير واقعي..

- يعني ما حداش ظهر من أولاده يا (شاكر أفندي).. والواد
(الشنقيطي) مخفي لحد دلوقتي ما ظهرش !

- همس بها في مكر باحت الشيخ (محمد أبو شعراوي)..

- البركة في بناته.. طول عمرهم أجدع وارجل من أخواتهم..
لكن (أبو شعراوي) لم يكن ليهدأ دون تعكير الصافي..

- الله يكون بعونها است الهانم.. مشاكلهم وبلاويهم كثيرة.. بس
غريبة.. دأنا شايف (حمدي) بعينيه دول اللي حياكلهم الدودع القهوة
العصر.. اللاده..!

- أهـم بيدوروا عليه من الصبح.. قلبوا البلد عليه.. أول ما الأزمة
جت للراجل..

رد أحد الذين يعرفون (أبو شعراوي) ببحرت على إيه..

- يا عم ما يعرفش.. بلاش الظلم برضه.. مصيبةـتهم كبيرةـ. كلهم
كانوا مسلمـين للراجل كلـ أمورـهمـ. حتىـ لماـ رـقدـ.. أولـادـهـ عمرـ ماـ شـالـواـ
همـ.

- عندكـ حقـ - استـ الكـبـيرـةـ اللهـ يـكونـ فـيـ عـونـهاـ.. لـولاـهاـ.. كانتـ
الـدـنيـاـ ضـاعـتـ..

عاود (أبو شعراوي) تعليقاته اللامزة الملغزة.. وأردف:

- ومنـ يـنـكـرـ ؟ـ ياـ تـرىـ بلـغـواـ العـمـدةـ.. ماـ جـاشـ يـعـنيـ
- اـكـيدـ بـعـتـواـ لـهـ.. يـمـكـنـ بـيـبلغـ المـركـزـ وـالـاـ (ـمـصـرـ)ـ.. هوـ مشـحـ يـقـصـرـ
وـلـازـمـ يـسـدـ
- زـمانـهـ جـايـ عـشـانـ يـعـملـ النـعـيـ (ـلـلـأـهـرـامـ)ـ بـنـفـسـهـ، عـشـانـ يـضـمنـ ذـكـرـ
اسـمـهـ كـمـاـ يـجـبـ.

قطع حديثهم الولد (جمعة أبو زنون) الأهطل وهو يمر وسطهم
محدقا بيلاهته المعهودة في الوجوه المقنعة بالجهامة الواجهة، وهو
يغالب ضحكة ويسألهم واحدا واحدا دون انتظار اجابة من أحد..

- حدش شافش (حمدي افendi) فين يا أولاد؟.. أمه بتدور عليه..
طرده أحدهم بعيداً وهو يجيب على سؤاله من حوله دون أن يعيشه

التفاتة:

- يمكن راح يعمل النعي
لكن الواد (أبو زنون) لم يعجبه تجاهله له فعاد محدقا فيه. يكاد أن
يلصق وجهه بوجهه وهو يسأل مرة أخرى في اصرار من لم يسمع:
- أمه بتدور عليه..

شخط فيه ناظر المدرسة الذي كان بجوار الفتى المذهول.. ودفعه في
قرف متحاشياً لمسه..

- امشي يا واد أغسل عماضك جتك القرف في أمك امشي غور من
هنا.. إيه اللي دخل الواد ده هنا؟..

رد عليه الولد (جمعة) مقتريا منه هذه المرة في اصرار من لا يفهم
سر غضبه :

- أمه بتدور عليه من أول ما خش (عزرايل) يأخذ روح أبوه.
وماحدش عارف الحنة اللي هو فيها.. انت تعرف؟ آني أعرف..؟
صرخ الناظر في رعب وهو يجد عيني (جمعة) المعمصتين أمام
عينيه تماماً. ودفعه في صدره بقوة بعيداً.. فتشكل الولد في ديل
جلبابه ووقع على ظهره.. مثيراً بعض مصمصات الشفقة واحتجاجات
الرحمة أحرجت الناظر.. ولكن بعض قهقهات السخرية والشماتة
بددت الفزع، وأمسك أحدهم بالولد (جمعة) من قفاه صارخاً..

- وفين الحنة اللي هو فيها يا وله.. شفته؟
(جمعة) وقف على قدميه.. يرمي ويلوح مهدداً في غيظ، ويهز
رأسه متحديا وهو يستعد للهرب.. جذبت حركته المترقبة اهتمام
الكل.. لكنه فاجأهم وهو يبتعد لمسافة مناسبة. حين أخرج لهم لسانه
في ظرطة طويلة من فمه.. ثم استدار منحنيا كاشفا عن مؤخرته. ثم

مثنياً بزرطه أعلى وأطول من إستة.. أجبرت البعض على الضحك غير المناسب ولحق به (عبد الصمد) الغفير ونصحه خرزانة لسوعت مؤخرته بقسوة، فهرول عاوياً ككلب داست على فخذيه جاموسه هائجة، وهو يلعن أبوهم جميعاً.. وأبو الميت معاهم في حزمة واحدة.

إِحْتَاجُ أَحَدُهُمْ صَارَخًا لِيُعِيدَ الالْتِئَامَ إِلَى حَائِطِ الإِحْتِرَامِ الْمُنْهَارِ
بِسَبَبِ عَمَلَةِ الْوَلَدِ (جَمِيعَةِ) الْوَسْخَةِ ..

- ما هو مش معقول سبي (حمدي) يغطس فى ساعه زى دى .. هو ده

وقته .. ٦

تشجع آخر وقال ممتعضاً في همس مسموع:

- زمانه ملتح عنده واحدة من إياهم.. استغفر الله العظيم من كل

اٹھ عظیم ..

کان (محمد أبو شعراوي) متريصا فهمس مستأنفاً چهوده في

الحرب..

- الله يكون بعون مراته.. هي كمان مصيبة لها فيه أكبر من أمه !.

أكمل (رضوان العدوى) في تأكيد:

- جت على صرخة من ساعة ماجت لحمها الأزمة، وكان أبوها ألى

ح يموت.. عملت بأصلها..

مصمص (أبو شعراوي) شفتيه وتساءل في براءة..

- هي القضية حيث حكم فيها بالطلاق إمتنى ٥ الأسبوع الجاى بابن؟

الطلاق أرحم من المؤبد.

- الاست الكبيرة وبناتها حواليه من أول آهه.. كل واحدة جت من

ناحية.. مع ان كلهم عندهم عيال..

.. عيله نسوانها أرجل من رجالتها..

عاود (رضوان) تجاهل تلقیحات (ابو شعراوی)..

بنات أصول.. رينا يعوض عليهم..

وابعد قليلاً عن (محمد ابو شعراوي) منهياً الحوار الذي بدأ يتطرق لمناطق محرجة محفوفة بالشك وستفعل في الجلسة أو سخ مما فعله (جمعة).. وما صدق أن صاح أحد أولئك الذين لهم موهبة

التقاط صولجان القيادة في مثل تلك الأزمات بحكم خبرة من عمر القرية في مواجهة الكوارث..
ـ يا للا يا رجاله.. قدامنا نهار طويل بكرة.. كل واحد يعمل اللي عليه..

صدق (رضوان) على كلامه متعاقاً بحبله للقيام متباها (أبو شعراوي) عن قصد..
ـ عندك حق.. أحسن من الكلام اللي لا يودي ولا يجيب..

خفت الرجل.. قليلاً.. إذ وجد البعض أن لا ضرورة لوجوده، الأقارب الحميمون لم يتحركوا.. والجاهزون للملمات منهم ومن غيرهم. انطلق كل لتنفيذ ما اعتاد إنجازه في مثل هذه الظروف. منهم من ذهب للتنبية على الحائز على والتوصية بفتح المقبرة.. وراح البعض لتحضير مكان الغسل، فأهل البيت لا خبرة لهم بمثل هذه الأمور.. آخرون ذهبوا لتحضير مواد البناء وآخرين لاتفاق على الفراشة من القرى المجاورة فالمتوقع أن السرادق سوف يكون فاخراً وكبير الحجم. ذهب البعض لايقاظ ناظر المحطة، واجراء مكالمات ضرورية، وارسال إشارات. وآخرين لطبيب المستشفى لكي ي العمل اللازم. بينما صعد أغلب الشباب إلى سطوح منازل الأقارب والجيران لأنزال أحمال من قش الرز تكفي لفرش الشوارع والحواري حول البيت والطرق إلى الجامع الكبير والمحطة وطريق الجبانة. لم يكن قد تم الاتفاق على خروج الجنازة من جامع (سيدي مجاهد) كما حدث فيما بعد - ولذلك فرشوا شارع المحطة وشارع السوق الذي يشق البلدة من عاليها لواطيها، تحسباً لما قد تصنعه احتمالات سقوط المطر من وحل وطين.. فلا أمان لكل تلك الغيوم المتراكمة التي استدعتها صرخات النساء.. أو لعنات (فرج الله)..

انتهى (الشنقيطي) منتصراً في معركته الحرية الخاصة وفي نفس الوقت الذي تبين فيه حقيقة ما حدث.. فانتفض وقام ليصب على جسده العملاق طشتين من الماء البارد، يطفى بهما اللظى الذي كان

يجب أن يخدمه (ريال) آخر غير متاح.. وزوجته المهدودة الراقدة سطحية بسبب هجماته المدمرة الممتعة، كانت سترفض بشده أن تفتح له مرة أخرى أبواب كنوزها حتى لو ضاعف رسم الدخول المعتمد، لذلك أخذ يغيظها ملوباً بشموخه الجبار، وهو يشقق ويتفاقئ مقلداً أصواتها السرية، تحت سيل الماء البارد.. وفجأة.. توقف مؤبداً نفسه مثيراً دهشتها.. فقد تذكر أنه ترك الواد (حنيدق) الأقرع في مخزن الشيخ (مقبل) منذ بعد صلاة العشا.. حيث كان قد واعده أن ينتظر عند نقطة التسلل السرية التي تعود أن يقوده منها إلى داخل المخزن.. ليتلقى منه شوال العدس الذي قبضاً ثمنه مقدماً من الواد (حامد النمس) البقال. فراح ينهي حمومه بسرعة وهو يلعن نفسه وعقله الزنخ المريوط بإيره، وهو يدخل في جلبابه على عجل وينطلق ليعرف ما جرى للولد.

- مصيبة وجرسه وسط هذا المهرجان تبقى فضيحة بجلالجل والست هائم تقتله لو حست منه شبهة خيانة.

مهرولاً وصل إلى الهدف وحام حول المخزن واضعاً أقنعة مختلفة تلائم كل من يقابلها، ولكنه لم يلاحظ شيئاً غير عادي. فافتراض أن الواد (حنيدق) مزنوقي في المخزن، لا يستطيع الخروج وسط هذه الهمة.. التي تحيط بالدار وبالمخزن الإستراتيجي الذي يقع فوق غرفة الفقيد مباشرة..

صفر صفرة ذات ايقاع خاص متفق عليها، محاولاً إلا يلفت نظر أحد، ولما لم يسمع إجابة لها.. ارتاح باله قليلاً وخر من أن (حنيدق) لم يجد فرصة لدخول المخزن أصلاً.. فحمد الله وغير خط سيره ليقوم بالمهام التي يتوقع أن تطلب الهائم في ظرف كهذا منه أن ينجزها.. قبل أن يعود مسرعاً إلى بيته ليحضر طبلة المسحراتي التي تحقق له الموسيقى التصويرية اللاحقة للقيام بدور الإذاعة المحلية لإعلام أهل القرية والعزب المجاورة - إن لزم الأمر - بما يحدث من تطورات وأحداث جسام وأخبار.. عندما لا يكون مجال للقيام بدورها العادي في رمضان..

والواقع أن (حنيدق) الأقرع كان بالفعل ممزقاً في المخزن.. كان قد تخير شواله. وما أن شده وسنده لكي يلفعه في نظرة واحدة، شلت حركته الصرخة الأولى، التي انطلقت من الغرفة التي تحته مباشرة تعلن خروج روح الشيخ إلى مولاه..

ارتباك لثانية.. ثم أعاد الشوال إلى موضعه في هدوء.. وأمام هرج الأرجل ومرج الأصوات حوله.. تحقق من حقيقة موقفه وحرجه.. لكنه كمحترف لم يرتباك وغير خطته بسرعة. جهز لنفسه مخبأً آمناً خلف زكائب الأرض والقمح والفول.. حاسباً في ذكاء عدم إمكانية كشفه حتى لو دخلوا المخزن لأي غرض عاجل. كور نفسه كما في رحم أمه وتوسد ذراعه وراح في النوم.. راجياً من الله الستر وعدم الفضيحة ولذلك لم يسمع صفاراة (الشنقيط) القلقة.

(نوال) بنت (عبد القادر) أفندي المدرس وأخت (سالم) السجين كانت تقف أمام وابور الجاز في مطبخ بيتهما في الدور الثاني تعدد الطعام الذي ستأخذنه معها وهي ذاهبة في أول ميعاد لزيارة (كافوري) صباح الغد لزيارة أخيها في سجن (المنصورة).. لا أنها ولا أبوها كانوا موافقين على هذه الخطوة غير المسبوقة والتي قررتها فجأة واصرت عليها كعادتها..

عندما سمعت نهضة أمها ورأت دموعاً تترقرق في عينها حزناً على الرجل الذي تصر على أنه سبب سجن أخيها.. تعجبت. وردت بإبتسامة ساخرة ولم تعلق، حتى عندما عاتبتها أمها مبررة محاولتها للاندماج في موجة الحزن العام..

- ماحدش بيشرمت في الموت يا (نوال).. ومراته برضه قريتنا، خسارة البلد فيه كبيرة مهما كان.. ثم إن ابنه مش لسه جوز صاحبتك.. وحيفضل جوزها.. مش ممكن المحكمة حتتحكم بطلاقهم.. بعيد عن شنبكم!!

لم تكن على استعداد للقتال أو حتى النقار.. فلم ترد وتظاهرت بالاندماج في ضغط الهواء في الوابور المعاكس، الذي يأبى إلا أن يهب

كل دقيقتين حتى هب الحلة، إلى أن أستطاعت أن تسلكه وتزيد شعلته وصوته. لتقطع على أمها سكة الجدل الذي أرهقها وأرهد أباها من المغرب، ليغطي صوته على الغليان الذي يفور في رأسها. بسبب غضبة أبيها عليها. ولعنه لها ولأخيها التي تشبهه. حسب قوله. في نشfan الدماغ والعنق الذي يودي في داهية..

كانت قد قررت القيام بالزيارة ولو اتهدت السما على الأرض، بعد عودتها من زيارة صديقتها - (عزة البدرى) - زوجة (حمدى) التي تلوك البلد كلها حكاية قضيتها. منذ رفعتها بابيعاز من (نوال) وأخيها طلباً للطلاق منه.. كانت تقف معها بكل جوارحها.. كانت تفهم دوافعها.. مثلها كانت عنديه.. شخصيات طاغيتان، جمعتهما المدرسة في صداقة وزماله عمر بحاله. ويوم أسرت لها (عزة) بعد زفافها بعنة (حمدى) وحيرتها أمام عجزه وخجله وتضاؤله أمامها عندما يختلي بها.. رغم سيرته الفاضحة التي على كل لسان.. احتارت وحيرتها معها..

فالبنات لا يطلبن الطلاق في بلدنا مثل هذا السبب. المرأة تحتمل وتلتتصق بزوجها ولو كان عضم في قفه..! عظيم! لكن (عزة) ليست (في زهد ناعسة) ولا هو في (قدسيّة أيوب).. هو لا تؤرقه احتياجات، لكن ماذا عن احتياجاتها هي. إنها أصغر منه بإحدى عشر عاماً وما زالت شابة وجميلة، جمالها وشخصيتها يجعلانه أمامها مرعوباً كالمذنب لا يجرؤ على النظر إليها.. حاولت معه، ساعده.. بلا فائدة.. ثم اختلط الأمر بالسحر والأغواء والشعوذة.. عرضها لتجارب مؤذية مع النصابين والدجالين. ثم حملته بمساعدة (سالم) على عرض نفسه على أطباء نفسيين وعضويين كبار في مصر دون جدو..

في البداية غاظه تدخل (سالم) وأخته في الموضوع، فغضب وثار. لكنه استسلم لمنطق العقل، عندما أقنعه (سالم) أنه يساعد نفسه. وينقذ زوجته من جحيم لا قبل لأحد باحتماله.. والأمر بيده هو - وافق وترابع - ثم وافق واستسلم لكن رحلة (القاهرة) لم تجد.. إلا في توسيع الهوه بين الطرفين.. أغرت (عزة) نفسها في القراءة! وصنع تماثيل صفيرة وخرافية من الطين والصابون.. وكادت تجد ما يشغلها

عن مصيبيتها معه.. لكنه كان يزداد شراسة في معاملتها بقدر ما كان يتضاءل أكثر أمامها خاصة عندما راحت تعاطف مع حركة الطلبة وتحدث مثل (سالم) وكانت الكتب التي تستعيرها من صديقتها (نوال) تثيره فيمزقها ويحرقها.. وهي تصبر عليه.. إلى أن شكت له ما حدث من أحد نصابيه الدجالين الذي حاول إقناعها أن تحل مشكلتها سرًّا بل وحاول الأقتراب منها وأغواها ولما نهرته وطردته.. ثار هو وهاج واتهمها أنها لا تريد الشفاء (عجبية كأنها هي المريضة!).

لأ وزاد الأمر بلة أن أحد أصدقائه الحميمين حاول أن يغيرها أيضاً.. وهو يقنعها أن كل الناس كذلك !!

عندما اسرت (عزة) بذلك (نوال).. حرضتها على طلب الطلاق على الفور وتفجرت القضية.. وصارت حديث الجميع.. النساء والطلبة والمثقفين في البلد تعاطفوا معها.. لكن الكبار والأعيان وعلى رأسهم طبعاً الشيخ (مقبل) الذي كانت سيرته لا تخير عن سيرة ابنه.. شنوا عليها حملة طالت (سالم) و(نوال) - اللذين وقفوا إلى جانبها.. واعتبروها قضية لا تقل أهمية عن قضية الجمعية التعاونية التي شغلت القرية كلها.. وتبني (سالم) الذي كان غارقاً لشوشته مع أصدقائه الطلبة في حكاية الجمعية التعاونية والنادي تبني قضية (عزة).. بل كلف محامياً كبيراً من أصدقائه تولى القضية باعتبارها قضية رأي عام.. وكاد (حمدي) يقتله متهمًا إياه أنه أفسدها عليه وسمم أفكارها.. واليوم كانت (نوال) عند (عزة) عندما بلغتهم خبراً لأزمة التي يتعرض لها حماها الشيخ.. فأقنعتها بالذهاب للوقوف إلى جانب حماتها:

- إحنا ما بنتخانقش يا (عزة) قضية الطلاق دي قضية كل واحدة فيينا.. لكن انتي لسه مراته.. وعليك واجب.. وأثبتتي لهم إننا مش هنأ.. ما إحناش بنقطع هدوم بعض.. أنت فاهمة.. لازم تتصرفي كواحدة حرة.. عارفه هي عايزة إيه.. وده الفرق بينا وبينهم..

ابتسمت لنفسها وهي ترفع غطاء الحلة.. عندما تذكرت ما فتح الله به عليها من كلام موزون و(متكلف) كما غمزتها ولمحت لها (عزة) في

إعجاب.. وهي توافقها.. كادت تتحققه عندما تذكرت أنها شخصت لها المشكّلة التي عجز الأطباء الكبار عن تفسيرها..

- هو قد اهلك شخصيته بتنها.. وعشان كده بيروح يثبت رجولته عند صنف من المقهورين. ما هو لو كنتي عرفتي تقريره والاً تفهميه حاجة كان حاله انصلح. وحس أنه ند ليكي.. لكنها خيتك بقى!

وقع الغطاء النحاس منها محدثاً صوتاً.. انتبهت لخطوات أبيها الذي كان قد هرول بعد خناقه الأخيرة معها واضعاً قناعاً من الحزن ليلحق بموكب الحزن العام.. لكن صعب عليه أن يتركها مقهورة وهي لم تطلب سوى أن تطمئن على ابنه ويكرمه الذي يحرق سجنه قلبه جميراً. منذ ما يقرب من عام. أخفى إحساساً غامراً بالرضا والأعجاب بها ويفقدرتها على القيام بما لا يجرؤ هو على القيام به.. بعد أن استسلم لتهویلات الجميع حول ابنه، وموقفه، واستحالة زيارته لشدة خطورته على أمن الدولة التي لا ترحم. حاول للحظة أن يثنّيها مرة أخرى مدفوعاً برعبه - لكنه عدل عن ذلك، عندما وقف يتأملها قليلاً في حيره.

احست بخطواته فالتفت وأحزنتها نظراته وفهمت، لكنها، تجاهلت الأمر إمعاناً في العناد وتابعت، دون كلمة حركته وهو يخرج من محفظته جنيهين.. يضئهما حيث يمكنها رؤيتها عند أول التفاتة.. وتنحنح وهو يمضي آملاً أن تعرف مقدار تقديره لتصرفها، وخوفه عليها وشفاقه من سفرها.. لم يكن من عادته الاعتراف بلحظات ضعفه فأسرع مغادراً..

ابتسمت وهي تتناول الجنيهين وتلوح بهما لألمها وهي تصيح ساخرة :

- ويتقولي لي جاييين نشفان الراس منين ؟.

مسحت دمعة تحدرت على وجنتها وأحسست بحب لا حدود له لهذا الرجل الطيب الغضوب، الذي لا يعجبه العجب، ويغضب لأهون سبب..

ثم لا يلبث أن يعود سلساً كالماء العذب، يفعل كل ما يمكنه لارضائهما
وارضاء أخواتها، الذين التفوا في تلك اللحظة حولها وقد أفرزعنهم من
نومهم كل هذا الضجيج والصراخ فقاموا مضطرين يغائبون النوم ما
بين مندهش يسأل ومرعوب ذاهل وغاضبة متکاسلة.. أرسلتهم لأمها
تجيبيهم عما يؤرقهم لتريح دماغها وتنجز ما وراءها مستسلمة
لأفكارها..

(- يا بنتي اقنيعها دي برضه بتسمع كلامك.. الطلاق شيء بغيض
عند رينا.. ويكره رينا يكرمهها..

- لا والله.. البت عندها حق.. ده اتجنن - كل يوم فضيحة.. أما
حكاية ؟

- لكن نرجع ونقول ذنبها إيه؟.. أنا مش عارف لو كانت الحكاية دي
حصلت معاك.. كنت ح اسكت وارضى.. واشوف بنتي بتنتهي قدامي -
مش ممكن !).

استسلمت لـ سيل ذكرياتها، وتلاحت الصور أمام عينيها على
موسيقى وـ الشّوابور التي تبعث رتابتها على الولوج السلس إلى عوالم
أكبر بكثير من مساحة المطبخ بل ومساحة القرية بل ومساحة العالم..
مساحت دموعها بكمها في صمت عندما انتبهت لحصار موجات
الصراخ التي كانت تعبّر سماء القرية وتخيل النسوة الصارخات اللائي
خرجن ليسكنن كل هذا النهر من الحزن المجاني في طين حواري
القرية المسكونة - حقل حياتهن الشحيح..

- حزناني عليه يا بلد هبلة.. مش ده اللي كنتوا بتتهتفوا ضده يوم
الجمعية العمومية عشان بالع الجمعية في كرشـه.. يا خرابـي.. وكان كل
اللي عملناه طبل فارغ.. يا ترى بتتصوتوا عليه والا على خيبة أملكم..
الجهل والقهر يفضلوا راكبين على نفسكم.. ما فيش فايدة..
وأخذت تنفث غلها في ضربات شديدة لـ كباس الشّوابور لتزيد النار
اشتعالا.

أخيراً.. استطاعت موجات الصراخ الملتائعة المتعاظمة أن تعبر بعد لأي تلك المساحة الخضراء الممتدة لأكثر من كيلو مترين من الحقول غرباً.. بين القرية وعزبة (النصاصرة) لتبلغ بعد مجاهدة وتشتت مسامع ابن الشيخ (مقبل عودة)، البكري، (حمدي) الذي كان لحظتها ممتنعياً صهوة وثيقة اثبات رجولته الجديدة.. (تفيدة المتعة) ناسجة الأكواب والحسير الملون.. في حجرتها التي يفتح بابها على ظلام الحقول مباشرة.. انتفض انتفاضة محموم، كأنما شكته المرة الخبريرة بإبرة محمامة في جنبه، صرخ من لوعة حقيقية وهو يستعيد بالله من الشيطان الرجيم.. ويمسح ببطنه كفه على وجهه المذعور.. وهو يتشهد.. ويشهق شهقة أفرزت المرة التي دهشت لانسحابه المفاجئ، فريتت على وجهه في دلال وغنج محترفة وقالت في سخرية عاشقة واثقة:

- مالك يا ضنايا.. سلامتك يا حبة عين أمك..

غضب عندما أحس في كلامها نبرة اشارة لامزة:

- ماليش.. اعوذ بالله.. مش سامعة؟

استند على الحائط تاركاً إحدى ساقيه فوق خصرها..

. سامعه يا نضري.. فيه إيه؟..

- باين حد مات في البلد

- كل يوم فيه حد بيموت.. الموت علينا حق..

- لا.. الصریخ المره دي عالي وفظيع..

- حبه نسوان ليُو لقيوا جنازة يشبعوا فيها لطم على روحهم..

بيطفوا سهرجة قلوبهم من قلة الرجال.. يا سيد الرجال كلهم..

لم يصدقها :

- يا شيخة بطي.. دي البلد كلها بتصوت.. صدرى مقبوض..

حساس اني ح اتخنق.. يكونشي؟..

- تف من بقك يا راحل.. أبوك لسه قدامه ميت سنه.. دا الشيخ

(مقبول).. ما يموتش فطيس كده!..

قالتها.. وان أسرت في القلب أمنيتها أن يكون هذا صحيحاً..

ليصبح في مكانة أبيه.. وينتهي رعبه وخوفه الدائم منه..
ـ أنا أصلي كنت سايره الصبح وأشيته بعافيته وحالته متأخرة قوي..
كان لازم أجيب له دكتور..

ـ الله.. يعني جيتاك حدانا هي السبب، عايز تقول يا حبيبي ان أنا
السبب؟.. لا بقى..

ـ يا شيخة حرام عليك مش قدسي.. بس كان..

قاطعته بحنان :

ـ والنبي ومعزتك هنا.. دول حبة نسوان بيتحانقوا على راجل.. والآن
على جاموسه وقعت في البير.. أصل بلدكوا دي يا باي.. تولد البغالة
وتحبل الطور.. اضحك يا شيخ.. يلا.. مالك..؟

ضريته في جنبه ببطئ كفها القوي رأيت فوق ظهره العاري محاولة
أن تستعيده.. لكنه نفر ولم يستجب لها.. ثم دق الباب دقة منغمة
يعرفها.. فقام يرتدي ملابسه المبعثرة.. في لهوجة صامتة دهشت لها..
وعندما عاد الدق أعلى وأشد مرة أخرى صرخ في عصبية.. وقد ازداد
صدره انقباضاً:

ـ طيب يا (سباعي) ! لحظة واحدة..
شد سوستة الحذاء الأجلasiه النص رقبة.. وسوى شعره الناعم
تحت الطاقية المتصوف.. ودون أن يلتفت مودعا دنياه البضة العارية
المبعثرة على الحصيرة، والتي لم تستطع تجلياتها المضيئة وسط كومة
البطاطين المنكوشة أن تؤثر فيه..

ـ فتك بعافية..

ردت بشهقه حسرة حانية تعابه.. وقد رفعت نصفها العاري مستندة
على كوعها المرمر.. بينما اندفع يفتح الباب ويخرج.. ليهمس له
(سباعي) فزعا، عندما واجه وجهه ناظرا في عمق عينيه في مواساة..

ـ أبوك الله يرحمه.. والبلد مقلوبة وواقفة على رجل..

لم يفاجأ.. فقد كان يشعر بذلك منذ سقط قلبه المعصور بشدة،
ساعة سمع وتجاهل الطلاقات الثلاث من فوق المدنة.

٠ في نفس الوقت الذي اندفع فيه (حمدي) يقطع المسافة بين العزبة والقرية أملأ أن يرطب هواء الفجر البارد الرطب جدبه النفسي وجفاف حلقه وضيق صدره. قافزاً القنوات مختصرًا المسافات في محاولة للوصول في الوقت المناسب، كانت الست (ستوته أحمد الشرقاوي) والدة (محمد محمود عثمان) تدخل إلى محطة (طنطا) في طريقها إلى (القاهرة) بحثاً عن حقيقة مصير ابنها الذي شوهد لآخر مرة مغشياً عليه ومقطعاً بدمائه في حوش (قسم أول طنطا) حيث كان اليوزباشي (أنور منصور) قد أعطى تعليماته في ساعة مثل هذهمنذ ما يقرب من عام لزيانيته أن يحصلوا منه على اعتراف باسماء زملائه الشيوعيين وأماكن الهاريين منهم بأي ثمن، فانهالوا عليه بكعبوب البنادق والأحذية الميري حتى أغمقوا عليه فاغرقوه بالماء، وحين أفاق عاودوا الضرب إلى أن فقد النطق في الرابعة صباحاً فحملوه في سيارة إلى وزارة الداخلية وهناك استئنف التحقيق معه إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة.. فنقلت جثته إلى مكان مجهول حيث دفن سراً.

على رصيف الدرجة الثالثة كان عدد من المجندين الشباب يتداولون التراشق بقشر اليوسفي وهم يطاردون بعضهم بحثاً عن الدفء وتمضية الوقت في انتظار قطار الفجر المتجه إلى القاهرة..
 لكنهم خجلوا وتوقفوا عندما أقتربت الست منهم خاصة وقد أصابتها قشرة من قذائفهم دون قصد.. اعتذروا لها بشدة وأفسحوا لها مكاناً على المقدار الخشبي..
 - رينا يخليلكم لشبابكم ولاهاليكم..
 - متأسف يا حاجة والنبي ما أقصد.. بس يا حمار أنت بقى..
 - حصل خير يا ابني.. هو لسه كثير على القطر؟

- اتفضلي يا أمي.. هنا.. استريحي.. القطر على وصول.
أغروقت عيناهما بالدموع حين سمعت كلمة (أمي)، رمت على كتفه
وهو يسندها لتجلس. جلست. اقتربوا منها متسائلين في تعاطف
أجبرتهم عليه رنة صوتها الحزينة العميقه.. سأل أحدهم في اهتمام
 حقيقي:

- على فين يا أمي؟..

إجابتها غمرت كل منهم بإحساس خاص. طاغ جعلهم يتحلقون
 حولها في مشاركة حنونة..

- رايحة أسأل على أبني.. يا ضنايا.. قرينا على السنة أهله وما رأته
 عيني..

- مجند يا خاله؟..

- يا ريت يا أبني.. آخر مرة شفته فيها كان بيجهز هدومه فشنطة
 صغيرة.. سأله.. على فين يا نن عيني؟ قال لي مسافر (طنطا).. قلت
 له: عند مين؟.. قال لي: جماعة أصحابي!.. أعرفهم يا أبني؟ قال لي:
 لا.. وما فيش داعي تعرفيهم..! استغرت لكن قلت له: تروح وتيجي
 بالسلامة.. ومن يومها.. ما شفتوش..

- ما سابش حتى إشارة والا إمارة..

سرى نفس من الدفع إذ تقاربت الأجسام وقرفص البعض أمامها
 يراقب في ملامحها شيئاً يخصه أو يبحث في نبرة صوتها عن ملمح
 يعرفه..

- بعد حوالي شهر كده.. جاني جواب.. لقيته محشور تحت باب
 الشقة.. كان المكتوب بيقول أنهم قبضوا على (محمد) وعذبوه وبهدلوه
 وهانوه.. وقتلوه..

همومة الدهشة الممزوجة بالخوف تجمعت في تساؤل حبيس مفروم

- إيه؟!

- الجواب كان من حد يعرفه، واحد من زمايله قال إنه شافه بعينه
 في حوش (قسم أول طنطا) وهو مغمي عليه ومغمط دم.. والمخبرين

بيحشروه في كرسي عربية ملاكي.. والعربية طلعت بيها من القسم على مصر.. عقلي طار.. خدت الجواب وطرت على الداخلية فمحرق قلت لهم أبني.. قالوا: ما نعرفوش.. قلت لهم.. لا.. أمال الجواب ده معناه إيه؟.. سابوا الموضوع وشبطوا في الجواب.. مين اللي عطى هولك؟.. أنا لقيته.. طب لو حد جاب لك جواب تاني هاتيه مع الجواب. يا ناس.. أنا ماحدش سلمه لي.. كان تحت الباب وأنا جيت لكم.. مش أنتم الحكومة.. وأنتم الوطنية.. أنا واقعه في عرضكم.. دلوني على مكانه.. طب روحي هدي سرك.. ولو حد جاب لك جواب تاني هاتيه وتعالى.. كان القطار قد وصل وهي مستمرة في حكايتها.. أحاطوا بها في إشراق وساروا وهم يسندونها ولا أحد منهم يريد أن يقاطع استرسالها، حتى أجلسوها على أحد المقاعد وجلسوا حولها.. وهم مشدوهين مشدوهين لنبرة صوتها العميقه الحزن الأليفة النبرة.. حتى أن بعضهم أغروقت عيناه بالدموع..

- ناس قالوا لي روحي مباحث طنطا.. السر عندهم رجعت طنطا.. وصلت في ساعة متأخرة.. وأنا ماليش حد في طنطا.. نمت في الجامع والصبح سالت عن المباحث حتى وصلت لهم.. دخلت أودة فيها ثلاث ظباط كبيرهم كان اسمه (أنور).. ممبashi، قلت له: فين محمد عثمان، قال: وأنت تكوني مين؟.. قلت له: أمه.. ولا رمشت عينيه، قال لي ويدوري عليه ليه؟.. قلت ابني.. بكريه وكبير أخواته.. ابن عمري.. قال لي: لو كان بيختلف علياً ما كانش حطاك في المهانة دي!.. مسكت في زماره رقبته.. قلت له أنت عارف هو فين؟.. محمد فين؟.. قال ما أعرفوش.. قلت له انت اللي قبضت عليه ماحدش غيرك عملها.. ومعايا جواب يثبت.. قال لي: فين الجواب.. قلت له: في المباحث العامة.. في الداخلية.. قعد يسألني.. مين اللي سلمه ليك.. مين اللي كتبه؟.. فيه إيه؟.. واللي كتبه عرف منين اللي حصل وبقى وشه يصفر ويحضر.. أتأكدت ان هوه..

والآخر قال لي:

- أبنك هرب عند خروشوف..

قالت له إبني ما يروحش لخروشوف.. إنتم اللي بتروحوا له
برجليكم.. كل ما تترفقوا..

قال لى: وافت بقى تعرفي أبنك كان بيعمل إيه؟

قلت له: أيني طيب وابن حلال.. وما يعملاش العيبة!.

قال له: أينك ملحد ضد الإسلام.. وعائيزها شيوعية..

قلت له أخ... ده قديمة أندى.. ما الرسول كانوا بي

ساحر وكذاب.. يا كذاب.. دا أنا إبني يقلع قميصه للعريان.. ويعطى
اللقمة من بقه للجعنان.. أنا عايزه أعرف طريق إبني.. لومات
قولولي.. لوحبي قولولي أنا مش حأعمل حاجة.. أنا طيرة ضعيفة
قدامكم أهله..

ضحكوا التلاته بـ حاجة.. و قالوا : أبنك هرب عند خروشوف ..
و طردوني و قالوا : لو حد جاب لك جواب تاني .. امسكيه وهاتيه هو يعرف
مكانه .

أحد العسكريين انتهى جانبًا وأخذ يبكي في سره.. وأخر قام في
عصبية وذهب إلى آخر العربية..

ـ أنا قلت لنفسي أنا لازم غلطت اللي سلمت الجواب للأخلاقية..
ـ رحت لوأحد أبن حلال زيك كده.. وماليته اللي أنا فاكراه من الجواب..
ـ صورته عملت منه ييجي عشر صور.. خدت واحده ورحت (العضو
الدولية) حسب مادلوني أولاد الحلال.. في مصر.. لقيت عسكري واقف
قدامها سألته عليها قال ما أعرفهاش.. قلت له: أنت واقف قدامها وما
تعرفش عشان كده حقوق الناس ضايعه بسبيكم..

لكن قابلوني هناك - سرت خواجایة خدت الجواب مني وقلت لي
هدي سرك وروحى واحدنا حنعمل اللازم وسمعت أنهم ذاعوا اسمه في
الراديو ورحت الهلال لا حمر.. قالوا ماحدش هنا له دعوه.. صرخت
وقلت لهم أنا مجنونة ومش حآمشي إلا أما أقابل المدير والا الوزير
حتى.. خرج لي المدير وخد مني الجواب وقال لي..

- أنت ست مظلومة.. بس ما كانش لازم اللي كتب لك الجواب ده
يشتم ويغلط في الحكومة وف عبد الناصر.. على كل حال روحي
ارتاحي.. واحنا ح نعمل اللازム.. ونرد عليكى..
ولا حد رد ولا حد سأل..

رحت القضاء العالى.. ودخلت ع النائب العام.. قلت له موت ابنى
في رقبتك، عمل محضر و كان معاه ناس كثيرة بصوالي وقالولي روحي
واحنا ح نبحث الموضوع.. ونرد عليكى..
ولا حد رد ولا حد سأل..

لحد ما ظابط طيب ساكن جنبنا.. جالى وقال لي يا خالتى (أم
محمد).. (محمد) مات.. بعد ما خدوه من (طنطا) للداخلية.. ودوه
(القلعة) وبعدها رجعوه (طنطا) ميت.. ودفنه هناك..
ـ هناك فين؟..

قالها آخر الجنود المستيقظين وخياالها يلوح له غامضاً بين
رموشة.. ولم يكن ينتظر الرد.. ولكنها قالت وهي بين النوم واليقظة:
ـ مش عارفه.. في (طنطا).. في (مصر).. أنا رايحة اسأل..

في نفس تلك اللحظة التي غلبها النوم فيها.. كان (عبده أفندي)
والد (سالم) ينزل سلالم البيت مهموماً.. وحين خرج من باب البيت
وعبر الشارع، استدار في حدة نحو زوجته التي كانت تقف في
(التراسيئه) تتابع النسوة الصارخات العابرات في مجموعات.. همس
بصوت عال حتى لا يسمعه غيرها..

ـ فيه فلوس ع الترابيزة خليها تاخدها.. وطلعى لها الشنطة وبلاش
(السبت البايخ) ده ! ..

زغرت السيدة كعادتها مستنكرة. وأشارت له في حدة أكثر أن يذهب
وبلاش فضائح.. وغاظته إشارتها كالعادة وخاصة أن الرجل لم تقطع
من الشارع. وهو لا يرضى أن يلاحظ أحد غيره إشارة يدها المستبدة
الآمرة. فزغر لها زغرته التي لا تعنى شيئاً.. واستدار مسرعاً ليلحق
الرجال في المitem.. وهو يزوم محتدا في هممة مكتومه..

هذه المرأة (البندرية) لن تكف عن عادتها في إظهار رفضها لما لا
يعجبها من تصرفاته (الفلاحي) بهذه الطريقة، التي احتملها حتى
أصبحت من لوازم الحياة.. أكثر من خمسة وعشرين عاماً.. يحبها..
نعم.. ولا يزال.. تزوجها أيام كانت الدنيا غير الدنيا والناس غير
الناس.. البيضة كانت بمليم وأقل بل كانت النكبة تسمى عشرين

بيضة.. وقبل أن تطلع للملك الشاب المحبوب مخالب تغريه أن ينحرف ويسلم نفسه للبنت الطليانية بينما الألان يدقون بعنف أبواب (أوروبا) أيامها كان معظم الرجال في مصر يبلغون سن الرشد وهم لا يعرفون شكل الجنية ولم يروا جريدة.

هو دون أخوته يرتدي البدلة ويتعلم ويصبح أفندي على رأسه طريوش.. يعلم الأطفال الجوعى الذين تنهشهم البلاهارسيا ويفرى المش أكبادهم.. وهو يصر على أن يكتبوا ويقرأوا الحروف دون ضرورة، إذ سرعان ما تبتلعهم الحقول والشقاء الذي يلزم لقبوله أن يعلّمهم مع الكلمات - الخوف والنفاق كواجب وضرورة إيمان لكي تستمر الحياة كما أراد لها الإله.. ويتوسط له الشيخ (مُقْبَل) نفسه لدى مجلس المديرية الذي كان أحد أعضائه فيعين في المدرسة الأولية التي حظيت القرية بها - أيضاً بفضله. في مقابل أن يبني والده الحاج فصلاً يضاف إلى المدرسة، ليكون له مكان يمارس فيه عمله ويقبض مرتبًا في عين العدو أربعة جنيهات كاملة.. وسط احتفالات القطر كله بجلوس مولانا الصبي الجميل على العرش وتوقيع معاهدة ..٣٦

أربعة جنيهات كاملة يسرت له عيشة مختلفة.. يأكل ويطعمها الخبز الأبيض المصنوع من دقيق القمح (المقطف) الصافي، وتجعل مقامه لائقاً للإقامة في المقاعد العلوية التي بناها بالطوب الأحمر والجبس الأبيض بعد أن زودته بجرأة لم يألفها لكي يتسلل ويراقبها هي وأختها من ثقب باب شقة أخيها ناظر محطة القطر الفرنسي في (المطرية) عندما نقل تعسفاً من الحكومة التي اعتلت سدة الحكم بعد الوفد..

ثم تسلمه بجرأة أكثر كي يعشق بياضها المشع الذي دوخره - فطلب من أبيه أن يخطب له بنت المعلم (الخميسى) التي لم تعرف كفوفها لت الجله ولا خمش الأشبر الجاف ولا شاك سل النخل وانصال الغاب والدرة الشامية.. إذ كان أبوها يمتلك في ذلك الزمان الغابر شادراً للخشب، وورشة لصناعة وصيانة سواقى المركز وما جاوره من الشرقية للغربية. تلك السواقى المركبة التي لا يضبط دورانها الا مخ مصرى

كبير تخرج من تحت يده، وتنشر على رؤوس الترع والبحور، تئن
وتنعر وتنوح، ناعية بؤس الفلاحين من عهد فرعون..

أربعة جنيهات تدمع مركز والده الحاج ابن الأصول وسليل الشرفا
وحفيض (سيدي مجاهد ابو عبد الوهاب) فتجعله يؤكّد بقدرها وقدرة
العشر أفدنة التي يمتلكها (للجاج يوسف) أن ابنته لن تهان ولن تذل..
وستظلّ الست ست كما كانت في بيت عزها.. فمستقبل (عبدة أفندي)
مضمون بالوظيفة الميري ثم أنه هو يحبها وسيصونها - عهد الله -
ويصون أولادها وبناتها من حرقة لهيب شمس الغيطان وهم الدوده
وخطر البلاهارسيا.. التي تأكل لحم اخوته وزوجاته..

أربعة جنيهات كل شهر تصنع المعجزات في زمن كان أكثر حبال
النجاة من فقره ضمانا، هو اللحاق بقطر الميري.. وتعفير الجبين
بترابه.. لكي تطول القامة شبراً فوق رؤوس الدهماء من القراء بل
وفوق أكتاف من يملكون شوادر خشب أو عشر أفدنة.. وتصلب الضهر
أشد قليلاً من ضهر الأخوة والأهل والجيرة.. فتتمكن القدمان
المترشتان من إتقان السير على خط التماس المرعب بين أصحاب
الأيدي التي تتقن فن التلويع بالكرياج واصدار الأوامر، وبين أصحاب
الأيدي التي تعرق وتكدح.. تلك التي جودت حتى أجادت ظهورها
الانحناء في صبر خالد أمام بلاوي الزمان. وأمام الرياح كأنّة البلاط
من (أسوان) (لدبياط). وأمام نزوات السلطان في كل زمان متحصّنين
بالإنكماش المحسوب حين تكسّر أنياب الكلاب، أو ترتفع كرابيچ
الحراس.. وبالسكوت الذي هو من ذهب حتى لو ضاق الصدر بظوفان
الكلام.. وأحرق بنيران الغيف والغضب..

أربعة جنيهات تسلحه بالمدارة العاقلة والمداورة النبيلة والكرم مع
الأكابر والأفاضل والأعيان. لضرورة أو بغير ضرورة.. وتمكنه من العفو
عند المقدرة وعند انعدام المقدرة ايضا.. متباهياً بتجاهل السفهاء
محتمياً بحسن التربية.. وبالقرش الأبيض من اليوم الأسود.. وراعياً
لبرسيم المدخر للبغال المتحكمة الحاكمة.. متحصناً بصرى الكباري
التي تحمل الدوس راضية في نبل، متخدناً ستاراً من حكمة عميقة

تمنع الغضب إلا عند التأكيد والوثوق.. وتدفعه للبعد عن مواطن الشبهات حتى لو كان من يرتادها أو يسكنها أقرب الأقربين.. فيظل الذيل، نظيفاً حتى لو كان محروماً، ظاهراً لا يتتجاوز المتع الحلال البسيطة إلا سراً.. إن لم يكن بد.. وتعطيك الصبر على فتل حباله الطوال عند اضطراب الأحوال.. والالتصاق بالدار حتى لا يقل المقدار مع التسليم للواحد القهار.. إن بدا في الأمر ما يريب، مع تحصينه بالشك في كل جديد غريب.. غير مألف حماية للظهور المغسول بالليف والصابون النظيف.. بحفظة بعيداً عن مدى كرابيج الإهانة الجاهزة دائماً في أيدي أصحاب الحل والربط في البلد.

وتغري الوظيفة وعلامات الهوى العروس بالقبول، والرضا. وتأتي من البلد المجاور في تخترون وأربعة عشر جملاً وحصان، بعدد الأربعة عشر مديرية.. في زفافه تمتد على طول الزراعية من (الكفر للمنية).. رقص وساحة فرح، قسع الأهل وأهل الأهل والزيائين والعمال. وتكتشف بين العائلتين صلات نسب وقرابة قديمة، فأمها من (الرخوية) والرخوية أخوال دار (مجاهد). ويقي زيتنا في دقينا..

وتسهر الست (أم زتون) وفرقتها من (المنصورة) حتى الصباح في فرح (سي عبده).. و(أم يوسف) اخت (سي فتوح أفندى) الصغرى.. بعد أن كاد زواجها قبل أخيتها الأكبر يفسد الأمر كلـه لولا حنكة (الشيخ يوسف) ومعرفته بالأسباب. والفرحـة بزفة العصارى على أنقام فرقتي (الشabori) و(أبو الجود).. النحاسيتين.. تجعل من الفرح عيداً حتى للعوانس من العائلتين.. وترف ريالات الفضـه وتنهمـر كالـمطر على رؤوس الفرقة والمدعـين.. والنقطـة تجـمع في صـينـية فوقـها منـديل كـالمـفرـش مـفـروـش على وـسـعـ، فـتـعلـوـ كـالـكـومـ تـثـيرـ الحـسـدـ.. وـتـظـلـ تـثـيرـ الخـلـافـ حول حـسـابـ سـدادـهاـ لـحـقـبةـ تـمـتدـ حـتـىـ سـبـوعـ رـابـعـ مـولـودـ لـلـعـروـسـينـ..

ابتسم راضياً عن نفسه وهو يتذكرها بنت (يوسف النجار) التي سحرت له وسحرته وهي كالبدر في الكوشة. إخوته حسدوه عليها.. (محمد) ضرب (فهيمة) ليلة الفرح و(عبد الهادي) أغضـبـ (زنـوبـةـ)

وحلف عليها طلاق تلاته ماهي باليه فيها في ليالتها السوده وأصر الأصغر (عوض) ان تخطب له امه (هانم) بنت (عبد الجليل) الشقرا ذات العيون الخضراء.. الوحيدة التي رقصت فرحانه من القلب كانت (عاقلة) زوجة ابن اخته (فرحة) - مراة (الصديق).. التي ادهشت الجميع برقصها الذي يخزي برقص (بديعة) المشهورة.. ويومها شبع (الصديق) تريقة وسط الرجاله عندما كانت تصل اليهم نعلمه ضحكاتها على بعد مربعين من البيت.. لكنه كان أمرح واصدح منها، فزاده فرحتها مرحبا وسعادة.. بنفسه وبها..

كل زمايل (سي عبده) حتى اولئك الذين نالوا فرصه الحصول على أربعة جنيهات شهرياً مثله.. حسدوه وان اخفا حسدتهم في شماتة خفية.. فلالأربيعه جنيهات عندهم أحلام أخرى في امتلاك الأرض.. ممن لم يذق لذتها.. او لزيادة رقعتها ممن يملكونها ويعرف قيمتها.. ويعرف ما وراء الملك من عز وجاه.. فمثل هذه العروسة كفيلة بفتح ألف سبيل وخرم لتسرب الجنبيات.. في مصاريف لا فائدة منها.. عروسة مثلها ما توفرش دي مخلوقة للنزيه وليس وراءها إلا الخراب.. ولكنهم مع ذلك شاركوا في نفثات الغيظ التي ينفخها الحاسدون - والله انكتب لك يا (خمس دمياط) !!

ابتسم عندما تذكر تلك التسمية التي أطلقها أخبيتهم عليه وهو في الكوشة إلى جانب القمر.. رغم ما كان فيها من توريه بذئبة تريد أن تحط به.. لكنه اعتبرها دليلاً مؤكداً على أنه غاظهم.. وجعلهم ينفثون غيظهم القاتل..

- شوفوا.. شوفوا.. قاعد جنبها مش على بعضه ابن (أم العز).. ولا (الشكول) !

تلفت حوله حتى يتأكد أن أحداً لم ير أو يسمع ضحكته التي خرجت منه غصباً.. عندما تذكر هذه الكلمة التي ظل الأطفال يضايقون بها ابنه لسنوات طويلة.. والتي ظلت تبعث الابتسام الخجل على الوجوه.. كلما نطقت في الفصل.. وبيقيت تصيقه به.. ولم يستطع أن يدل ابنه على معناها وأن شرح له بفخر سبب إطلاقها عليه وهو

عرис. حتى جاءه (سالم) مرة وهو كبير يشرح له معنى (الكشكول).. عندما خرمت أذنه في أحد الأفراح. فعرف أنه ذلك الأفندي الملقى المزوق المرافق للراقصات والمغنيات في الفرق المتجولة والذي يجمع النقطة ويلاقي النكات ويطلب من الجمهور الصمت والسكات.. وعيشه صاحبة على البناء بتوعه يحمي لحمهن العريان من قرصات أيدي الفلاحين الطويلة المتاصحة.. وإن كان ضحوكاً مرحًا أبداً لا يغضب بل يوزع ابتساماته هنا وهناك مقدماً الوعود الكاذبة لذوي السلطة والنفوذ والقوة من أهل الفرح أو أهل القرى.. ليدفعهم إلى إخراج محافظهم وتنفيضها بين أرجل الراقصات والمغنيات وهو يضحك على ذقونهم..

يتذكر أنهما ضحكا على هذا التفسير المتأخر.. واستملحاه على الأقل هو أقل بذاءة من (خمس دمياط) ذلك الذي يمتهن مهنة شديدة الانحدار.. لا تليق بآنسان شريف.. يومها ضحكا من القلب للمقارنة.. وغفر هو للحااسدين وغفر (سالم) للتلاميذ مطاردتهم له بها من مدرسة (الشيخ) الأولية حتى (المنزلة) الثانوية.. خاصة حين فسر بها ابنه سرتكميرته الدائمة خوفاً من أن يضبط متلبساً بالتهاون.

يومها قال له (سالم).. وهو يداعبه:

- أنت يا بابا برضه تستحق بعض الغل والحسد، ففي زمنكم كان صعب أن تهب الحياة بسهولة لرجل في موقعك.. الوظيفة المستقرة.. والزوجة الجميلة المدبرة.. التي لم تفتح الباب لشياطين التبذير عملت لك بيت محترم..

قال لنفسه :

- فعلاً.. الولد (سالم) ده دماغه كبيرة قوي ويفهم.. منهم لله.. كادت دمعه تفر من عينه.. وأخذ يلوم نفسه لأنه كان يريد منع ابنته من الذهاب لزيارتة.. وحمد ربنا أنه صالحها وترك لها نقوداً تكفيها عن غلطته..

ذكرته سيرة النقود أن الأربعة جنيه صارت ستة بعد قليل وكان حكومة جلاله الملك (الأمير) تكافئه على زواجه من البيضاء الهائم

المراحة، التي أثارت حسد الرجال والنساء، في دائرة لم يكن بد من أن تتسع وتحتدم ضدها بعد أن سكنت المقددين الحديثين فوق سطح الدار..

أنا الملة دين وامك وسط الدار

ادبح لي الخروفين..

وأنا أقة د النار

أنا خروف مهمر وانت خروف محمر

وامك المرجانيين..

والص لاع المختار

الغنوة طول النهار على لسان الأختين (فريدة) و(فرحة) والجميع يشرون حفيظة الأم الكبيرة، (أم العز) التي لم تكن سعيدة جداً بهذه الجوازة.. وحين أصبحت (الكل في الكل) بعد وفاة الحاج في الحجاز أعلنت الحرب.. والحقيقة أن أمك كانت ودنية ويتسم لبنيتها وزوجات أولادها.. وانت كنت حميقى ومززر على طول! والوالد الذي وقف بقوة يحميك ويصر على الوفاء بوعده للمعلم (يوسف).. كما وقف من قبل في إصرار على استكمال تعليمك.. وأمام كل موجبات اشمئن.. (هو الأفندي واحنا بتوع الحمير)! أيوه والوقتي إحنا نلم الجلة وهي ساكنه العلالي! على ايدها نقش الحنه إحنا ندوخ طول النهار بين الغيط والدار والزريبة وهي قاعده تقاصع بين الشكمة والتراسينة.. ليه يعني.. بنت مين يعني؟.. وأهو الشادر اتقفل وما المعلم (يوسف).. والديون كلت المطحنة والمعجنة ضييعت المعلم.. نشفت البركة وبيان زقازيقها.. ولم يعد هناك مفر من الانفصال.. (شيل ده عن ده يرتاح ده من ده).. وال الحاج لم يعد موجوداً ليشخط ويمعن..

ـ جيب لها اللي يخدمها إحنا مش خدامين أبوها.. الله يرحمه!

لم تنتزع المعركة الاست من المقددين. ولم يذهب سي (عبدة) لسوق الحمير ولا للترتيب تحت البهائم.. الأفندي ظل أفندي.. بل زادت غلوتها عنده. على وشكها نقل إلى البلد نفسها مرة أخرى بعد غرية في عدة بلاد. فوفر قروش المواصلات ووفر صحته التي هلاكتها الدرجة

التي اشتراها للسفر رغم سخريّة الخلق.. وتوفّر له بعد عودته إلى القرية الوقت ليجلس طويلاً إلى السّت، تسامرها وتبصّيء ليلتها الفقيرة بحكايات ألف ليلة وأزيد من ذلك (أبو بثينه) وهو من ناحيتها لم يقصّر ووّهب لها ولأولادها حيّاتها كلّها.. هي أميرة وتساهم (لولا حرّكة يدها الأُمّرة تلك ونظرتها اللوامة كلّما لم يعجبها شيء من سلوكه وقدام الناس !!). لولا هذا لما كان عنده أي فرصة للزمّزّة. فابتسمت لها جاهزة دائمًا توزّعها على الجميع في كرم، حتى على من لا يحبونها.. ست تشرح الفؤاد العليل.. بدر في تمامه.. ومجاملة للكبير وللصغير.. لا تتأخر عن وهب النقوط لكل البشر في كل المناسبات.. خطوبة وحنة ودخلة وحتى سبوع وظهور ولا تختلف عن المواساة في الأحزان أو المشاركة في الأفراح.. فستانها الحرير الأسود جاهز تتصدر به الجلسات النسائية في الأفراح والميامِم.. الأيد مش سايبة وان كانت فرطة حبتين، لكن كل شيء يدون في النّوّة، الخارج والداخل.. ولذا هي مرحباً بها في كل مكان.. متّحدة لبقة.. على لسانها تجري الحكم والأمثال والأذجال.. تنهي بها المنازعات وتحسم المناوشات والمناقشات.. جرأة لدىها في الحديث، ساخرة تثير دهشة النساء المقهورين.. حكمتها ولا بتوع المدارس.. أكسبتها حب واحترام أهل البلد.. فزادت غيرة منافساتها المتجددات من أي أسلحة ولم تنزل لهم من زور.. ولو دقت لهم الحنة وأشعّلت صوابعها شموع..

لكن بالعند في الكل.. المقعدين صاروا أريعة وصالة وتراسينة وشكمة بحرية وحمام بمواصير وخزان فوق السطح.. والزجاج الملون تصدر الجزء العلوي من التراسينة التي تطل على الحارة الضيقـة.. التي صنع أخوها خشبها عمولة ودهنها بالزيت وبالألوان.. وأحيط سطح البيت الذي صار لها كله بعد رحيل الأم بسور من الطوب الأحمر.. لتطل من ورائه براحة.. وتندى على (خلت خضره) للمشاركة في الخبيز أو على (بنت جبر) لطحن الطحين.. أو على أي من كانت لتجلب لها ما تريد من الدكان.. فكرّمها مع الجيران سهل لها الأمور.. ولسانها العسل أطّال الأحاديث عبر السطوح مع هذه

وتلك.. وأرتفع إيرياً تالت راديو في البلد على جذعين صاحبين طويلين لشجرتي كافور. أجثثا خصيصاً ليصل بينهما السلك حسب تعليمات (محطة الشرق الأدنى).. لتسمع سي (محمد عبد الوهاب) و(كوكب الشرق) وأيضاً تتتابع خطبة العرش الملكية في حينها.. والنبي كانت ولا الملكة (ناظلة) في زمانها..

أخذها (سي عبده) عقب الزفاف لمصر لتشاهد احتفالات التتويج. ورجعت عاشقة ولها نة بالملك الفتى تدعوه وتتوهم عليه، وتغضب لمن يحبيب سيرته بما لا يليق من الأحترام والتقديس.. (الناس على دين ملوكهم).. كانت أيام المدرسة الأولى تمثل دور البنت المصرية التي تظهر على المسرح والدنيا بترخ رعد ومطر ويرق وهي ملتفة بالعلم الأخضر ذي الهلال والنجوم.. تغنى باكية وسط العاصفة مستنجدة..
- من يأخذ بيدي يهديني البيت ١٦..

فيتقدم منها (الملك نفسه) فارساً يشق العاصفة، مرتدياً تاجاً من الورق الذهبي. يرفعها من يدها فلا تسقط في الوحل ويدينس العلم المقدس.. وسط هتاف وبكاء رجال ونساء (الكفر) على السطوح.. وتصفيق انتلاميد والمدرسين والعمدة وكبار رجال المركز ومجلس المديريّة من بقوات وبشوّات..

وفي مصر عندما رأى العين في ميدان (عابدين) تخيلته يتقدم منها وحدها ويأخذ بيدها وسط الزحام فأغرقت عينها بالدموع.. التي مسحها (عبده أفندي) في حنان.. فأضطرت أمام حنيته أن تعرف له بالسرـ أنها حامل.. فيصبح فرحاً وسط الحشود.. ويسرع بها إلى البلد طائراً لا تسع الدنيا فرحته بمولوده البكري..

كانت حاملاً في (نوال) التي لم يستطع أن يفهم ما يدور في رأسها أبداً، حتى وهي طفلة.. لم يكن تعليم البنات شيئاً شائعاً وقتها فلم تكمل تعليمها لكنها ظلت تحمله مسئولية ذلك وتعاتبه عليه، وتذكره في كل مناسبة.. إنها كانت يمكن أن تكون (بنت الشاطئ) نفسها أو حتى (فريدة حسين) المحامية المتصيّطة أو أحسن.. وهو لم يغفر

لنفسه ذلك أبداً..

اجتهد كي لا يتكرر ذلك مع المولود الثاني (سالم) الذي جاء مع الأيام السوداء التي تليق بقدومه وسط ظروف تنبئ بما سيكون عليه مستقبله وحياته التي أجهدت (سي عبده) وأثقلته بالهموم. كانت السحب تتجمع لتشكل المشهد الرهيب اللائق بهذا الولد المشاغب المشاكس الذي عرفهم طريق السجون وكسر حاجز رعبهم الذي كان يجنبهم دائماً غضب السلطان وأهل الحكومة..

الملك يعزل حكومة الوفد عاماً متعمداً ويأتي (بمحمد محمود).. ويترفد الشيخ (مقبل) من العمدية.. وتنقسم البلد. وأوروبا تغلي.. ويشائر الحرب تدق الأبواب بقوة.. (هتلر) يحرق (الرايخستاغ) ويستولي على سدة الحكم في (ألمانيا) ويهدد ويهز صدر الأرض الكروية التي لم تكن قد أصبحت قرية بعد.. وتعبت (أم يوسف) في الميلاد الأول ولذا فقد حرص على أن يأخذها إلى (المنصورة) مرات عديدة.. لتواجه حمل (سالم) الصعب الذي حدث في فترة صعبة يهتز لها العالم من الرعب والخوف.. ولم يعد للمليم قيمة.. والقرش عز على الكثيرين حتى على (سي عبده) رغم الجنيهات الستة التي لم يعد لها ذلك النفوذ القديم..

وكان الحصار الدائم والسجن القادر كان يبني حول المولود الآتي جدرانه بلبنات الحرب الوليدة.. فيفاقم الأزمة ليقيم أسواره وأسلامكه الشائكة لا أمام بطن الأم ولا حول البيت.. ولا فيما حول القرية أو (مصر) كلها.. ولكن عبر وديان وجبال (أوروبا) وفيافي (لوبية).. وكان مصير الولد الثاني مرتبط من اللحظة ذاتها بكل هذه المصائب والمرض والتعب والأزمة الاقتصادية تحالف جميعها لتسد الطريق عليه.. وعلى البيضاء الحلوة التي يجهدها الحمل ويأكل قلب (سي عبده).. مرعوباً أن يضيع بسببه كل ما حسده الناس عليه.. وتحالف عليه تهديدات (هتلر) وتحالفات (ستالين) ومناورات البلقان.. فملاً قلبه الأحساس أن الولد القادر سيكون نحساً لا عليه فقط ولكن على

العالم كله.. لكنه لم يستطع أن يكرهه.. بل كان مشوقاً أن يكون القادر ولد والله قادر على أن تمر الأزمة بسلام.. ولا مفر من ابتلاء علقم الظروف..

لا تنفع الأحجبة ولا الأعمال ولا حتى وصفات الأدوية في التخفيف من مرض الأم الحامل وتزيد وطأة الأمور مع شیوع الخوف من تهديدات الإنجليز للملك بسبب علاقاته الإيطالية.. واحتاجات الوفد على تعین (علي ماهر).. وطموح الملك أن يكون خليفة للمسلمين.. لم يكن قدوم هذا الولد يوحي بأي خير وتمزق آهات الطلق قلب (سي عبده).. وتشيع حدتها في الليل خوفاً غامضاً..

نبضات قلب الوليد الواهنه تحاول ان تلفت انتظار الجميع إلى أن هناك حياة قادمة صعبة تدق صدر الكون المثقل بالقلق المرعب، الناشر أظافره في رقبة العالم، مع أظافر الوالدة في ياقه بالطه (سي عبده) وشال الدايه، الذي تمزق وملاعات السرير التي رطبهما العرق وماء البطن.

الخالة التي جاءت لمساعدة والمساندة توزع ابتساماتها المؤمنة لتخفف من وطأة تكشيرة (سي عبده) التي أورثها ابناءه منذ تلك اللحظة علامنة ساطعة بين الحاجبين تميز خلقة خلفته.. وينشب الرعب المتجسد في أصابع الدايه أظافره في رأس المولود، الذي انزلق متحديا في إصرار كل هذه الحوائط من الرعب والتعب والخوف وال الحرب والقلق معلناً انتصاراً واهناً على الحصار الكوني المفروض، ضعيفاً لكن في غاية الوضوح..

ـ حمد الله ع السلامه.. سالم بإذن الله.. أنا قلتها.. سالم أجبرت كلمات الخالة المتفائلة الجميع على الابتسام مزيحين سحائب الغم والخوف والقلق.. وانطلقت زغرودة (خلت خضره) تستقبله في خجل متحديه زغرة (سي عبده) محتمية بأمارات الراحة وعلامات عودة الحياة التي لاحت على وجه الوالدة.. التي تمتمت في وهن..

ـ سالم..

رددتها.. وهو ينقل أقدامه فوق أعواد القش، التي فرشوا بها الشوارع، تقية لما سيفعله المطر المنتظر واستعداداً للجنازة.. سمع لأول مرة لأقدامه صوتاً خشناً رتيباً.. فأغراه ذلك بالأبطاء ليعطي لنفسه فسحة من الوقت كي ينفض عن قلبه هذه الذكريات والهموم، قبل أن تحاصره عيون من سبقوه إلى بيت الميت فيلاحظون قلقه وضيقه.. كعادته لا يريد أن يعطي لأحد فرصة للشماتة في همه وألمه.. إذ عادت تقلقه وتندد عليه فكرة قبوله ذهاب (نوال) إلى (المنصورة) وحدها لزيارة السجن.

قاوم هذه الفكرة لعام كامل.. كان يتتجنب مناقشتها لعجزه أن يجد مبرراً حقيقياً للرفض، لقد بذل جهوداً جباره حتى عرف إن (سالم) لم يرسل إلى المعتقل مثل الآخرين.. وبقى سجيننا تحت التحقيق في السجن دون اعتقال وتحت أمر النيابة على ذمة القضية، حمد ربنا وباس إيمده وش وضهر كعادته، لأنها جت إلى حد كده، فزملاء ابنه يتعرضون لتعذيب وحشي في معتقلات نائية مجاهولة.. كان (يوسف عبد ربه) قد أطلعه على بعض ورقات بفرة من خطاب طويل وصله سراً من ابن أخيه (حسين) المعتقل في (الواحات).. ويقدر ما ملأته سطوره رعباً خففت عنه لأن ابنه موجود حتى الآن في سجن (المنصورة) ولم يجر ترحيله إلى (أبو زعبل) أو (الواحات) حيث يجري تعذيب يومي للمعتقلين بلا رحمة بقصد تصفيتهم جسدياً ومعنوياً:

(... لسع الكرابيج وضرب الشوم أهون كثيراً من التعذيب النفسي الذي عانينا به بعد إغلاق الزنازين علينا مساء ٧ نوفمبر ١٩٥٩ كان قد وصلنا خبراً أن السفاح (همت) قد وصل إلى الواحات ومعه فرقة التعذيب الخاصة به.. وكان معنى ذلك أن عملية وحشية سوف تتم في الصباح.. ولكن ما جرى في الليل كان أشد هولاً.. لم نر شيئاً.. في الحقيقة ولكن أصوات فتح الأبواب المفاجئة.. ثم النداءات الوحشية للعساكر وصوت هرولة الأقدام على بلاط العنبر مع الأوامر المشددة أن

يلزم كل معتقل فرشته.. وُضرب النوافذ بدبابش البندق.. ثم صرخات الأوامر الحادة.

- أجري.. أجري..

- هاته ده..

صوت طلقات الرصاص.. وعدو الخيل حول العناير ثم صوت آهات صرخات مجهرولة.. حول الليلة ل CABOS مخيف لم نعرف ماذا جرى ولا من هم زملاؤنا الذين استهدفوا ولا ما تعرضوا له طوال الليل. وفي الصباح عندما فتح شاويش العنبر علينا، بادرنا شبه باك :

- إيه اللي جرى في الدنيا ؟!

ولما سأله عمما جرى لم يفتنا بشئ، لكنه خمن ما سيجري و Xuena معه عندما قال إن (اللواء همت) ومعاه المأمور وشوية ظباط قاعدين قدام بوابة إدارة السجن تحت شمسية وحوالاً لهم عساكر بالرشاشات والكريبيج وعساكر خياله ما تعدش..

أخرجونا تحت وايل من الضرب والركل، خمسة بعد خمسة عراة كما ولدتنا أمهاتنا كل معتقل يحمل نمرته في يد وملابسه التي خلعها تحت وايل العصي والكريبيج في اليد الأخرى.. ثم يصدر الأمر في صرخات وحشية:

- أجري.. أجري..

وأمام كل مجموعة يمشي عسكري يحمل رشاشاً ووراءهم عسكري بالكريبيج.. ويمر الخمسة بين طابورين من العساكر يحملون الشوم والكريبيج السوداني والبندق.. ينهالون على كل دفعه عشوائياً.. على أي جزء من الجسم وعلىك أن تجري وأنت تحمي عينيك أو الموضع الحساسة في جسمك من تلك الضربات الممزوجة بالصرخات الوحشية.. والخيل تجري حول الطابور.. ونار مشتعلة عليك أن تلقي بأمتعتك وملابسك فيها.. لتتمر أمام منصة السفاحين.

- اسمك إيه يا ولد..

- اسمك إيه يا كلب..

ثم تبدأ رحلة العودة لتخرج دفعه أخرى فأخرى.. أربعين رحلة

عذاب تعيشها نفسياً وواحدة منها تعيشها جسدياً.. كنا
رمعمائه معتقد..

زميل لنا صرخ في وجهه (همت).. يا قاتل - سوف تدفع الثمن!!
فانفرط النظام وتکالب عليه الجميع حتى وقع على الأرض مغشياً
عليه.. وأقترب منه السجان ورفة بحذائه.. وأمر ثلاثة من العساكر
بجلده أكثر من سبعين جلد.. ثم قام يقلبه بقدمه.. وقال في حقد..

- لسه عايش يا ابن الثور!

وسمح لبقية مجموعته بحمله إلى العنبر..

لكنه رغم كل هذا لم يسمع.. آهه إسترham واحدة تطفى لهيب
غله.. ساد الصمت طوال بعد الظهر ولكن ما أن أقفلت الزنازين حتى
ارتجمت جدران السجن وردت الصحراء القاسية الجامدة القلب صدى
صوتنا نحن المضروبين ننشد بقوة :

- بلادي بلادي.. بلادي..

وظل حريق الملابس والأمتعة حتى الصباح يبعث في الليل دخانه
الأسود ليراكם ظلمة القلوب فوق ظلمة الليل..

في الصباح.. أخرجونا جميعاً، جلسنا القرفصاء أمام العنبر تحيط
بنا حشود العساكر المسلحين بالشوم والبنادق.. كانت الريح قارسة البرد
وكنا شبه عراة لا تستر أجسادنا سوى بعض الخرق.. وأرتعasha أجسادنا
تبتهل لشمس الواحات أن تعلو بسرعة لتتدفق أجسادنا قبل أن يبدأ
الحفل.

وصل المأمور والضباط ثم ضرب البروجي وجاء (همت) وفرقته
ليشير بخياله وغرور إلى المأمور الذي يأمر بفتح بوابة السجن
وخروجهنا في طابور ريعاعي.. وانهالت الضربات العشوائية.. وأثناء
خروجهنا طلب همت من المأمور أن يوقع على دفتر البوابة.. لكن
المأمور.. التفت إلى نائبه.. (عبد العال سلومة) وكان قد نقل بعدها إلى
المحارق منذ أيام.. وكان وغداً لا يخفي عداءه في سجن (القنطر
الخيرية) لنا.. بل ويتفاني في تدبير قضایا بالبحث عن (مطبوعات) أو
(منشورات) أو (رسائل). كان يتفاخر بصلةه بالباحث العامة..

وكانت مفاجأة أن يرفض التوقيع على الكشف. ثم يصبح بصوت عال :

- متأسف يا أفندي.. دyi مش مسئوليتي!

كان يعرف ما يدبره (همت) لنا؟..

وأراد أن يفسّل يده من دمنا..

مررت لحظات صمت.. إلى أن صاح (همت) فارغ الصبر..

- خلاصنا يا حضرة المأمور.. دول مسئوليتك..

المأمور قبل التحدي مرغماً.. ووقع على الكشف في الدفتر ثم قال بصوت عال أكثر.

- أيوه.. دول مسئوليتي.. أنا المسئول هنا.

وارتاح بعضاً لهذا التصرف.. لكن الچنرال (همت) زعق مخرساً الهممـات التي سرت بين الجميع واستعاد سيطرته وأمر بالتحرك. متقدماً الموكب هو وفرقته ومضى الطابور إلى أن وصلوا بنا إلى شبه واد تحيط به كثبان رملية لا نهاية لها تحجب الأفق من كل الجهات من كل الجهات..

وبدأ أمر منه.. صعدت فرقته المسلحة بالرشاشات أقرب الكثبان لتحيط بنا فوهات أسلحتها (الروسية) الصنع وبعدها أمر المأمور بالانسحاب من حولنا هو وجنوده..

صاحب أحد زملائنا:

- يا سيادة المأمور.. أنت قلت أنك المسئول عننا..

أصدر المأمور أوامره للجند والضباط التابعين له بالاتفاق حولنا.. والبقاء معنا.. وكرر (همت) أمره له بالانسحاب لكن المأمور صاح بصوت أعلى من صوته ليخيفنا..

- أسمع يابني آدم أنت وهو.. أنا عندي أوامر بضرب النار عند أول حركة تمرد.. فاهمين؟ مش عايز أي تمرد دلوقتي ح تتوزع عليكم الفوس والغلقان.. مطلوب تنقلوا أكواام الرمل دي من هنا.. لهنا.. وأي تقصير يعني ضرب النار فوراً.. ياماً.. يا عسكري أنت وهو..

كان يريد أن يؤكـد مسئوليته وفي نفس الوقت لا يتعرض لغضب

السفاح

قسمونا إلى فرق عمل وزعت علينا الغلقان والضؤوس والكواريك.
وبأن العمل العبشي لنقل الرمال من مكان إلى مكان في تلك
الصحراء الشاسعة في أتون شمس حارقة لا ترحم وسط العقارب
السامة والمطريشة القاتلة وكان (همت) يصرخ مغيطاً:

العساكر سلامة ليه في الضرب.. الولاد اللي هناك دول مش
بيشتغلوا.. ساينهم يتفسحوا.. أنا عايز اسمع صريخهم زي الكلاب..
أنت يا اللي هناك.. أضرب بقوة وألا ح أدورك مكتب..
ولم يسمع (همت) من آلة واحدة!!..

لذلك حين حذروه أن يحاول الاتصال بابنه أو زيارته لصلاحة كل الأطراف.. استسلم وصدق.. وكفى خيره شره.. تجنبًا للمشاكل.. وأعلنها في البيت حاسمة لا تقبل الجدل.. ثم مضى يجد ويختار لوقفه مبررات ليقنع الأم والأخوة.. فهو لا في الأمر مذكرا الجميع بيوم داهمت البيت ست كميونات محمولة بالجنود تقودها عرية بوكس مليئة بالظباط مدللا بذلك على خطورة الأمر.

كانوا قد حاصروا مداخل القرية وتقدموا كمن يدخلون معركة حرية، في ليلة سوداء ممطرة كهذه وصرخة أشد رعبا من هذه الصرخات الملتاعة التي تملأ سماء القرية أطلاقتها (قمر بنت جبر) التي كانت خارجة في خرس الليل لتملا بلاصي ماء من ظلمية (سيدي مجاهد) ليغتسل به زوجها بعد حثر مفاجئ على غير العادة. حين فوجئت بطابور العساكر المسلمين يقتتحم الحارة، مندفعا نحوها يهوله الظلام فظننتهم عفاريت نفاضتهم الليل. خرجمت صرختها حادة مفزعة.. لطمها الضابط القائد لطمة أخرستها وأسقطت البلاص ستين حبة ففرقع كالقنبلة وايقظ الحارة.. تهديدات الضابط ودقائق كعوب الجندي لبشت الجميع وأربعتهم وهم يشاهدون باب البيت ذي التلات طوابق يفسخ برفقة من قدم الضابط.

وينهار أمام هجوم الطابور، ورأوه - (عبدة أفندي) في ملابسه الداخلية وهو يحاول تعطيلهم حتى يستر الحريم، ليقابوا بعدها البيت عاليه واطيه.. ولما لم يجدوا شيئاً مضوا في غيظ يحدثون أكبر تدمير ممكн. وهو يسترحمهم ألا يفزعوا الصغار:

- (سالم) في مصر من أسبوعين.. من ساعة الدراسة ما بدأت.

وها قد مضت سنة يا (سي عبده) ولم تر ابنك، منذ ودعته على باب السجن وأنت تبكي حظك المنيل فيه منذ مولده.. سنة كاملة لم تكف (نوال) عن تنفيص عيشتك التي كانت سلسة آمنة.. هي وأمها تقدرانك كلما عنّ لهم ذلك لأنك لا تبذل جهداً كافياً للأفراج عنه.. وكأنك تستطيع.. أنت المستسلم لأوامرهم بعدم محاولة رؤيته أو الاتصال به..

- يا خلق أرحموني.. دا لولا اللي عملته كان الآن في (أبو زعل)..

عارفين يعني إيه (أبو زعل) والا (الواحات) ؟! ..

كان يسكتهم مؤقتاً بهذا.. فيكفون لأيام عنه، وكأنه فعل المستحيل وفشل، فيشفرون عليه ولكنهم ما يلبثون أن يعاودوا الزن والإلحاح حتى قررت (نوال) فعلها..

وصل إلى حيث تجمع الناس أمام بيت (الشيخ مقبل) فسلم وجلس متهدياً نظرات الاشواق والشماتة.. وسأل ككل واحد قبله عن (حمدي) ابن المرحوم ليعزيه وعرف ككل الذين سألهوا مثله أن الطبيب الذي لازم الميت من دخلة المغرب فعل المستحيل.. لكن أمر الله نفذ وطلعت روح الشيخ في منتصف الليل..

شارك الحاضرين في الشريحة المعتادة حول الأسباب المحتملة للوفاة.. وأفتى الكثيرون وخاصة (محمد أبو شعراوي) في تفاصيل مرضه الذي طال.. حتى قال أحدهم في غضب :

- أذكروا محسن أمواتكم.. واطلبوا له الرحمة !!

قال (الصديق بن عبد الله) في دهشة ساخرة :

- واحتماله كل الأمراض دي مش محسن؟.. ذكر اللي جرى له عبرة

برضه.. لكل من لا يرحم نفسه..

- عاود (ابو شعراوي) نبش الجرح :

- إنما (حمدي) ده يا أخويَا مخفي فين الليلة..؟ حبكت !

- المره دي باين في البندر..

- على فكرة يا (سي عبده) ما فيش أخبار عن الأستاذ (سالم).. هو
لسه في سجن المنصورة.. والا..؟

- بخير وكويس قوي.. وسمعت إنه ح يخرج قريب قوي.. أنا قابلت
ناس مسئولين.. معرفة..
واكدوا لي ان ما عليهش أي حاجة..

- دا بيقولوا إنهم بيقطنوه طحن في المعتقل..

- سالم إبني ما راحش المعتقل.. أنا..

- رحمة من ربنا.. أحمد ربنا انه فضل تحت أمر النيابة على الأقل
تقدير تزوره.. من حين لحين..

- زرته يا (عبد القادر أفندي)..؟

داس (محمد ابو شعراوي) على الجرح الناقح في قسوة.. وانخلع
قلب (عبد القادر أفندي).. وفكراً يقوم من فوره ليلحق (بنوال)
ويذهب معها (للمنصورة).. لكن (حمدي) ابن المرحوم وصل في تلك
اللحظة. فقام الجميع لاستقباله وتقديم العزاء له.. مرتدین القناع
الحزين المناسب.. ابتلع الجميع كلمات اللوم لغيابه حتى الآن..
والبعض أخفى ابتسامة من يخمن بالضبط أين كان.. ولم يستطع
(حمدي) أمام تعاطفهم أن يمنع دموعه.. فانفجر منها وكاد أن
ينهار.. امتدت عشرات الأيدي تسنده وتحيط به وتركت على كتفه.
وأسرع البعض فأفسحوا له مكاناً ليريح جسده المرهق من عناء الليلة..
وحزنها الذي لم يكن على البال..

حاول (حمدي) أن يجمع شتات نفسه ليكون ابن أبيه.. لكنه أحس
بضائمه وافتقد أباه الذي كان ملو هدومه حتى في مرضه.. لدرجة
كانت تمنع الآخرين من اظهار الاشتغال عليه أو الاقتراب منه لهذه

الدرجة.. أدار وجهه حوله في الحاضرين زائغ العينين.. كأنه لم يكن يتصور أن تستقبل البلد موت أبيه بكل هذا الحزن الفاجع.. صرخات النسوة التي استقبلته على مشارف القرية وصاحبته حتى البيت مشتعلة كلما شاهده جمع منهن أو مر على باب بيت مفتوح.. أحس بذنب جارح لأنه كان بعيداً ساعة موت أبيه. وأحس اللوم وراء نظرات الحزن التي تحاصره، فزاده هذا هلعاً وارتباكاً.. خاصة حين تذكر حاله وروقان باله ساعة بلغه النهاية الفاجع بينما الدنيا كلها مقلوبة حزناً وكمنا على الراحل الذي كان أبوه..!

أحس هوة من الفراغ تتسع حوله وتحيط به.. كان الجميع يحدثونه فلا يسمع أصواتهم إلا هممات غير مفهومة ولا يراهم إلا أشباحاً باهته تدور حوله، وكأنه في ركن قصي من فضاء لا سقف له ولا أرض ولا صوت إلا رنين صدى رهيب. ساخت روحه وكاد يغمى عليه.. ورأى نفسه ضئيلاً وحيداً.. غير ظاهر.. مما سلبه القدرة على تصور نفسه وسط كل هؤلاء دون وجود أبيه الشديد الحضور والذي كان مجرد ذكر اسمه يفتح أمامه وأمام القرية وأهلها مغاليق الأبواب ويعطيه عليها وعليهم نفوذاً لا يعرف مصدره ويضفي عليه سحراً وسطوة.. أحسها تسليبه منه وتركه وحيداً وسط هذه الأشباح التي يحاول تبيان ملامحها، ومقاطع كلماتها، فلا يستطيع إلا أن يرد على همماتهم بغمغمه غامضة لا معنى لها..

وصل العمدة ووراءه موكب من مشايخ البلد والغفر. وكان واضحاً أنه يحاول جاهداً أن يظهر حزناً شديداً.. لكي لا يشي وجهه الكالح الصارم الملائم بما يحسه من راحة لأن القدر أراحه أخيراً منافسه اللدود وسارق هيبيته، حتى بعد خروج العمدة من بيته. كان يذكر نفسه بموقفه ما بين خطوة وأخرى، فيشد قامته ويزيد تكشير جبهته.. خاصة عندما احتضن (حمدي) مواسياً مريضاً ظهره وهو يأخذه تحت ذراعه ثم يجلسه إلى جواره في حميمية، متتجاهلاً همسات سخرية لا

يمكن إخفاءها ونظرات استنكار يتوقعها سلفاً من أغلب الحضور.. فلم يحاول تبعها أو التأكد منها حتى لا يفشل في إخفاء مشاعره الحقيقية..

- ما نجيلاكس في وحش يا عمدة..

- رينا يجعلها آخر الأحزان يا أولاد.. (الشيخ مقبل) الله يرحمه..

كان أخويًا وأنتم عارفين.

- البلد كلها عارفة..

- البقية في حياتك انت..

- إنشاء الله كل شيء يكون على مستوى يليق (بالشيخ مقبل) وبالبلد وبالبركله.. أنا اتصلت بالمسؤولين وبقيادات الاتحاد القومي.. وبمصر وصممت أنها تكون جنازة رسمية يحضرها مندوب الرئاسة والداخلية.. وكل المسؤولين.. وعطيت أوامر التلفون ما يبطلش عشان البركله يعرف حجم المصيبة اللي صابت (المنيه) بموت (الشيخ مقبل) الله يرحمه..

وتجدها فرصة ليعرف (حمدي) وضعه وحجمه الجديد ولি�ضع نفسه أيضاً في مكانته الجديدة.. فهو معمداً أن يسمع القريبون كلامه وأن يفهموه..

- يا للا أدخل استحمرى كده وظهر نفسك، عشان ندخل على الرجال وأحنا طاهرين مش معقول ندخل على الميت.. وأحنا كده.. ياللا.. وشد حيلك.. الغسل ضروري للميت وللحي أكثر.. وعشان تليق بمقابلة الناس اللي كلمتهم عن مصيبتنا فيه.. قام البعض مبتعداً ليختفي ضيقه.. أو ليعلن في حرية العمداء اللي كلمتهم..

- كتر خيرك.. طول عمرك تعرف الواجب.

- يا (حمدي) يا ابني ما تعلش هم.. أنا زي المرحوم.. وإنشاء الله رينا ما يجيبش مشاكل، ويجعلها آخر الأحزان.. كل شيء ح يمشي زي ما كان وكأنه موجود بالضبط..

خيل إليه أنه يسمع مالم تنطق به الشفاعة، ويرى مالم يظهر في

نظارات العيون، لكنه قرر أن لا يفلت زمام المبادرة ويرتب كل شيء بنفسه، مسرعاً بإحتلال المساحات التي بدت فارغة برحيل الشيخ، مستولياً على ما كان من مسافات نفوذ كانت من حق منصبه وزاحمه فيها الشيخ واغتصبها منه في حياة البلد وفي قلوب الناس.. هو يعرف أكثر منهم ما خفى من أمور الشيخ وأسراره.. عيونه لم تكن غافلة عن تفاصيل ما يدور في البلد وما يدور تحت سرير الشيخ نفسه وداخل أعماق بيته.. حتى أنه يعرف أين حبس الولد (حنيدق) نفسه حين فاجأه الخرطوش.

لمح (عبد القادر أفندي) فأراد أن يكسب أرضاً أرحب وأن يغير مسار الحديث :

- يا (عبد القادر أفندي).. انشاء الله ح يسمحوا لك قريب بزيارة ابنك (سالم).. أنا اتكلمت في الموضوع.. أنت عارف أن (الباشا عاطف) كان عندي.. وهو اكده لي إن ابنك لو كتب ورقة قد كده.. ح يخرج فوراً.. هو وعدني يقبلوها منه.. كل ما هنالك يقول إنه مش شيوعي.. وان الشيوعية دي كفر والعياذ بالله.. تلاقيه في حضنـك..

لم يرد (عبد القادر أفندي) الذي فاجأه الهجوم المباغت للعمدة.. وسرت هممة فيها بعض الاستنكار لفتح هذا الموضوع الآن، فشغل العمدة نفسه بالرثى على ظهر (حمدي). ثم سحبه معه إلى الداخل فارضاً نفسه كقائد لعمليات الليلة لترتيب الأمور. وكأنه رب العائلة الجديد.. ولم تكن حالة (حمدي) تسمح سوى بالاستسلام لمن يتقدم لقيادته، كي يقوم بواجب إلقاء نظرةأخيرة على المرحوم.. الذي كان الإقتراب منه حتى في عز مرضه يلبـش جـنته..!

الكثيرون لم يرتاحوا لما حل بالعمدة من قوة شخصية مفاجئة. وتعجبوا لقدرته على الاقتحام وهمس البعض مستنكرين انهيار (حمدي) وانقياده للعمدة واستنكر البعض صمت (عبده افندي) وعدم رده عليه..

وأحدهم استظرف وهو يهمس لمن يجاوره..

- شفت قد إيه الفرق هايف بين اللي بيسمع كلام مراته، وبين اللي
بيخونها مع طوب الأرض. عشان مش قادر يبص في عينيها..
وزعق أحدهم بصوت أراده أن يصل إلى مسامع العemmaة قبل أن
يختفي داخل الدار:

- رينا يفك سجنك يا أستاذ (سالم).. كنا محتاجينك النهارده
لكن كلامه ضاع في ضجة أحدثها قادم من ناحية مندورة العemmaة
يزعق لإبلاغه.. أن كل شيء تمام.. والنعي مستنيين نمليه فورا
لأهرام.. وانهم بلغوا كل اللي طلب ابلاغهم من المحافظة للرياسة..
وارتفع صوت المؤذن لصلاة الفجر، فبدد الحالة المتواترة التي بدأت في
التكاثف كسحاب ممطر حزين..

توجه البعض لصلاة الفجر في الجامع الكبير بينما توجه آخرون
(لسيدي مجاهد).. وساد صمت متقطع ولم يعد في الفضاء بعد
تكبيرات اقامة الصلاة سوى بعض صرخات متفرقة هنا وهناك تنطلق
في استقبال بعض الأقارب القادمين من بعيد..

وتأكد بعد خروج من دخلوا لرؤية الميت، أن الجنازة ستكون عقب
صلاة الجمعة.. حتى تتاح الفرصة للجميع لحضورها.. واعطاء
الفرصة لنشر النعي بطريقة لائقة.. الدنيا برد والجثة تستحمل.

كان رذاذ خفيف قد بدأ في التساقط ليشارك في أخلاء الحواري من
العبارين.. وفي مواجهة معارضة أخيرة من أمها.. حملت (نوال)
السبت بعد أن وضعت فيه الديك المحمرو المكرونة والقطير والملابس.

- إيه يا ماما ح اروح السجن بشنطة.. هو أنا رايحة الجامعة..
قولها لم يكن بريئاً.. فلقد كانت تعتقد دائمًا أنها أجبرت على عدم
اكمال دراستها وأقعدت في البيت غصباً عنها، دافنة طموحها لتنتظر
عدتها..

طرحت شالاً من القطيفة السوداء غطت به حمل رأسها..
ليحميهم من الرذاذ، وخرجت سالكة طريق الحقول عبر سكة (دار

أحمد) من خلف المدرسة الأولية.. متجنبة بيوت أعمامها.. إلى ترعة السلطان، لتلتقي بالعريبة اليتيمة التي ستحصل قبل الشروق في طريقها اليومي إلى (المنصورة)..

• لم يشرق وجه نهار الأربعاء الثالث من صفر والذي وافق الثاني عشر من أم شير في تلك السنة السوداء على (المنية)، ظلت الظلمة متکاثفة، يوم ما طاعت شمس.. وغاظت قطرات الرذاذ وأن لم يسقط المطر المتوقع..

اندفعت (نوال) في خطى قصيرة حذرة مسرعة، لتكون في انتظار العريبة في مكان ووقت مناسبين خارج القرية.. لا تريد أن يراها أحد تجنبًا لتساؤلات مشقة أو شامتها تتوقعها مع كل خطوة وعند كل باب مفتوح أو موارب.. شكرت المطر الذي لعنته في البداية، على إخلاء الشارع، وساعدها هذا على الابتعاد عن بيوت أعمامها، دلفت من حارة ضيقة خلف المدرسة إلى اتساع حقل القمح الممتد حول مصرف (البوايلص) الذي عبرته قفزًا بخفة رغم ثقل حملها إلى الجانب الآخر حيث حقل البرسيم الذي كانت نباتاته تترافق فرحاً بالمياه الباردة التي تساقط من السماء.. وكأنها ترحب بها.. أبتسمت لهذا الخاطر.. وأحسست بسعة برد تخترق جلد ساقيها رغم الكلسون الرجالي الذي أرتدته تحت فستانها الشيت البسيط، الذي فصلته بنفسها أنيقاً محتشماً لظروف مثل هذه.. فازداد نشاطها وعادت تقفز (المصرف) إلى طريق أكثر براغاً يؤدي لشاطئ الترعة مباشرة..

ظللت السحب تراكم لتمنع إشراقة النهار، فأسرعت خطاهما خوفاً من أن تفوتها العريبة.. لذا عادت تقفز (المصرف) مرة أخرى عند نقطتي التقاء قربت بين ضفتيه الزلقتين، كاد اتزانها أن يختل فتشبت بالسبت المتأرجح كلاعب سيرك محترف.. واندفعت تقطع الحقل المبلول المطين.. حين لاحت أنوار العريبة من بعيد تخترق بصعوبة وابل المطر الذي بدا أكتاف في الضوء الرطب للمصابحين المغبshين فوق السكة الزراعية عند المحطة الرئيسية للبلد.. قدرت أنها لو أسرعت قليلاً ستكون في توقيت مناسب مع وصول العريبة إلى جسر ترعة

(السلطان) عند المستشفى..

خافت ألا يلاحظها (عم عبده) فأخذت تصيح من بعيد وهي تشير بذراعها الذي لا يسند السبب وهي تجاهد لتحفظ توازنها وسط البلال فوق الأرض الزلقة.. والتققطت شبحها من بعيد عين الصقر الذي تعود أحوال زيارته على طول الطريق، يخرجون إليه من حيث لا يتوقع، تحت ظروف أسوأ من هذه الظروف وأضل..

زيقت العريه وطقطقت وهي تجاهد للوقوف رغم الفرملة الهينه التي عالجها السائق بخبرة وحذق حتى لا تنزلق إلى الترعة.. وبمهارته المعهودة استطاع الأسطى (عبده عواد) أن يوقف السيارة العنيفة بالضبط حيث يكون الباب الأمامي أمام نوال تماماً..

لفتت حركة الوقوف المفاجئ، انظار كل من في العريه المزدحمة من نساء ورجال.. يتكونون في كتلة متزاحمه ملتحمه دافئة يختلط اللحم البشري فيها بالحديد وجلد الكراسي التي عفى عليها الزمن، وفيما بينها، في المساحات الخالية أو التي أخلاها الزمن من كراسيها تتكتل وتتراكم القفف والأشولة وحزم الكرات أبو شوشة والفلج والكرنب الطازج مع طاولات الأسماك ذات الرائحة النفاذ، وسلامل الطماطم ولفات حبال التيل والليف الخشن وطسوت الجبنه القريش وحزم البصل الأخضر..

ابتسם (عم عبده) ابتسامة عريضة مرحبة عندما فتح الباب وتعرف عليها.. كان صديقاً لأخيها (سالم) منذ كان (سالم) طفلاً يدفعون به من شبابيك العريه إليه وراء حقيبه الخشبية المميزة، ليحمله وسط كتل الركاب إلى (الجمالية) حيث المدرسة الابتدائية قبل أن تبني (المنية) مدرستها الخاصة في مساومة تاريخية تولاها (الشيخ مقبل) بنفسه مع حكومة (النقاراشي باشا) عام (٤٨) - مقابل غلق شعبة (الأخوان المسلمين). وقبل أن يتزوج هو من زوجته الحالية في (المطيرية) ويعكس اتجاه رحلة أتوبيسه اليومي لمبيت عندها لا في (المنصورة) عند أم العيال. كان معجبًا بـ (سالم) طفلاً قزعة يتحدثون عن ذكائه وفلاحته، ثم شاباً وصديقاً حميمًا منذ دس له سراً بعض تلك

الأوراق الخطرة التي تتحدث عن العمال والقراء وعن المستقبل الذي تستحقه مصر المستقلة.. وشعبها الشقيان العريق!

جاءت لتفسح لسبت مكاناً وهي تحييه وتشكره.. وازاح هو امرأة من البائعات في عشم لم تعترض عليه وقامت راضية لتجلس (نوال) على العجلة الكاوتش الضخمة التي ترقد على أرض العربية إلى جواره (كاستن) وبعدها اغلق الباب ثم ثبت اليدين الحديدية مرة أخرى في الحبل ليمنع حركتها، ويحول دون فتح الباب خطأ تحت ضغط كتلة الأجسام المتللة..

تم كل ذلك في ثوانٍ بعدها عاودت العربية سيرها المنزلي. لكن دخول الفتاة صاحبته صمت متوجس خلخل تيار الترثرة التي يمارسها الجمع المتلاحم، الذي كان كالعادة يبحث فيها عن تواصل ما - في كل لحظة ليأكل الوقت بمضغ سيرة البعض أو بتنفس فروة كل من يخطر له على خاطر أو باى.

كان امتناع هذه العربية المبكرة عاده يومية عند الكثرين والكثيرات من مكونات تلك الكتلة البشرية الساعية لالتقاط الرزق من القرى المختلفة، حسب تواجد الأسواق على مدار أيام الأسبوع من (المنزلة) شيء الله يا (سيدي يا قعقاع يا ابن عمر التميي) حتى (دكرنس) الفاتحة لسيدي (السادات).. لذا كان الجميع يعرفون بعضهم بعضاً.. معرفة حميمة نسجت وشائجها صباحات البرد والمطر في الشتاء واختلاط العرق النازف من الأجسام المجهدة في الصيف وأحاديث الشكوى وتبادل الهموم، لذا بدا غريباً ركوب الفتاة نصف البندرية، ففرض ذلك الصمت الذي ماهو إلا مقدمة لنكش النفوس لاكتشاف أسباب وأسرار الآخرين.

كسر الصمت احتاج ساخر مرح ينعي على الأسطى (عبده) الذي لا يقف بمزاجه هكذا إلا للنسوان.. تلا ذلك صمت مرح، وتأمل خجل لذلك الوجه البرئ المبلل بالحزن والمطر، الذي لا يليق اطلاق هذا اللفظ الجارح على نوعه أبداً.. كانت قد جلست دون تكلف أو تعال وسطهم، بعد أن عافت لاصعود بحملها الثقيل محتفظة بابتسمة

ساحرة وحركة رأس مؤدية تحبي الجميع وتعيد شكر السائق (الأمير)
الذى جنبها الحرج بإظهار مزيد من الترحيب وهو يسألها باهتمام
كبير عن وجهتها.. شجع ذلك بعضهن على التمادي المرح..

- يخص عليك يا اسطى (عبدة) طب مش كنت تحلق دقتك على
الأقل..

- هو جرى إيه يا أولاد.. انت لسه فيك الطبع ده.. دانت يا دوب داخل
ع الثالثه، وقلنا تابتة!

- وهو ديل الكلب ح يتعدل لوحده.. حتى لو ما حلقوش دقنه.

كركت ضحكات معلقة على التلميحيات المهاجمة المرحة، أثارت
دهشة ساذجة على وجه (نوال).. التي لم تجد فرصة لتفهم معنى
اللمز والغمز. وقطع الأسطى (عبدة) مرجهن الجارح بشخطة عنترية:
- أخرسي يا لبوة منك لها.. متأسف يا ست (نوال) أصلهم مايجوش

إلا كده!!

أرتفع صوت حاد محتج لامرأة ضئيلة شرسه لا ينطبق عليها
تشبيهه الفظ:

- بس يا بت انت وهي.. دي الست (نوال) بنت (عبد القادر أفندي)..
اللي خدوا أخوها (سالم) - رينا يحرسه ويصونه - السنة اللي فاتت
لله...

غمزت واحدة أخرى في خبث غير مبالغة، وهي تمصمص شفتيها
وتلوي بوزها الممطوط..

- رايحه له.. يا عينها الباكسة.. هي الناس دي ما بتختشيش.. ما
شعوش فضائح..

انقضت المرأة الضئيلة عليها بشكل مفاجئ ولطمته بشدة وهي
تصرخ بحرقة نمرة جريحة:

- أخرسي يا بت يا عويلة انتي.. جاك قطع لسانك من لغلوغه دول
أشرف ناس في البلد..

ردت ذات البوز الممطوط دون أن تدافع عن نفسها:

- هو أنا اللي باقول.. الراديو والحكومة يا اختي هو اللي بيقول إن

(الشعوبين) دول بيعشقوا بعض !!..

صرخ صوت حاد في غضب حقيقي وامتدت قبضة يد منفعلة مكورة
لتدق بقوة وقسوة ضهر المرأة المتكلمة وتشد شعرها..
ـ أخرسي يا بنت الكلب.. جتكو ستين نيلة. دانتو ناس هم، ما
عارفين مين اللي يقرّيكو م اللي يخرّيكو.

تلويت المضروبة في ألم وهي تتاؤه وتعتذر ببرعب لضراريتها، التي كانت ضخمة بما يكفي هذه المره لتلهم المرأة نفسها. وغامت عيون (نوال) بدموع شفافة بينما ارتفع صوت هررح عال سيطر على العربية ولفت كل الأنظار وأجبر الكل على إحترامه في موافقة عامة على ما أوحى به حين قالت صاحبته:

- رينا يخليكو لبعض يا سـت (نوـال).. رـايـحـه تـزـوري الأـسـتـاذ
(ـسـالمـ)؟.. رـينا يـرجـعـه بـالـسـلاـمـةـ وـيـفـاـكـ سـجـنـهـ.. وـيـخـلـيـهـ لـكـمـ وـلـنـاـ..
وـالـنـبـيـ وـالـلـيـ نـبـيـ لـوـلـاـ السـوقـ كـنـتـ جـيـتـ مـعـاـكـيـ..
ردـتـ (ـنـوـالـ) فـيـ هـدـوـءـ وـهـيـ تـحـاـوـلـ اـخـفـاءـ مـشـاعـرـهـاـ:
ـ لـسـهـ حـ أـحـاـوـلـ أـزـوـرـهـ.. بـيـقـولـواـ الـزـيـارـةـ مـمـنـوـعـةـ.

مساحت المرأة التي تخلت لها عن مكانها دموعا لم تستطع أن تجربها وهي تتذكر ما فعله (سالم) يوم ضررها الضابط والقى ببعض اعترافها في الطين.. لم تتكلم ولكنها تصعبت مصمصة شفاهها.. ولكن (نوال).. انزعجت ولم تعطهم فرصة للتمادي في الاشغال، فقالت في صلابة متعمدة، وقد انفرجت ابتسامتها مشرقة واضحة: أنا متأكدة أنه ح يخرج قريب جدا.. فيه مسئولين قالوا لبابا كده..

ولو أني مش مصدق عليهم.. لأنهم طول عمرهم بيكتبوا
- قطعوا.. دول خاطفين الآلافات.. ولا أيام السلطة لإنجليزية.. الهي
يخرب بيونتهم ويهددهم.

- والنبي ده ظلم يا قلب أمك..
- ه الدار للنار ما ولداته.. طب تقدروا تقولولي أيه اللي كان عمله..

مش هو اللي رجع الجمعية للبلد وفتح الحرامية اللي واكلين خيرها
أربعاشر سنة ١٩٥٦ هوه وابن (عبد ربه)
والنبي ده كان كلامه يتحطّع الجرح يبرد.. كل البلد عارفه كده..
منه لله اللي كان السبب الظالم..
أهو رينا خده الليلة دي بعيد عنك.. بعد العيا ماهد جتنـه.. ده
انتقام رينا..

لكن (نوال) اعترضت على اتجاه الحديث:

- والنبي يا أختي ما في حد في الخط كله إلا وزعل على سجنهم.
سأليني أنا.. لهم فضل على كل واحد.. هو كان مين بيجربي ورا مصالح
الخلق زيهم.. هو حد ناسي.. ولا حناكل وننكر زي القطة.
كادت (نوال) تفشل في منع دموعها وأن تنفجر في البكاء. عندما
أمن الكل على كلام المرأة في نفس واحد، حتى تلك التي كانت تلقي
بالكلام.. وقرأ الكل الفاتحة على الظالم والمفتري وابن الحرام..

تذكرت بأسى سمفونية الصراخ الملائع على موت الشخص نفسه،
يعزفناها ما زلن نسوة مثلاهن تماماً، وينفس الدرجة من الحماس..
فعادت تجاهد الدموع بابتسامة مغتصبة ولتمنح آهه حرقة و Yas تريد
ان تنطلق من بين شفتيها المضمومتين بقوة. لتختفي ارتعاشة أسنانها
التي عضت الأهة فقتلتها في منبتها ومنعتها أن تخرج حارة صارخة
صريحة تفرغ فورة إعصار مشاعرها التي اختلط فيها اليأس بالحزن
والغضب.. وهي تقنع نفسها مرددة في صمت..

- الناس كده.. لها اللي قدامها.. بسبب الجهل وقلة الحيلة..
Sad صمت. لم يجد أحد ما يقوله، عجزوا جميعاً عن التعبير عن

أحساس ثقيل بالخوف والحزن عصر قلوبهم. فانشغل كل في شأن من شئون بضاعته أو شغل نفسه بها، تجنبًا للتلاقي العيون المثقلة بهم خفيًّا من الطعم. أعطاها صمتهم فرصة لتهداً وهي تلوم نفسها لاسراعها في القاء اللوم على الناس.. وعلى الظروف.. كانت منذ ليلة القبض على أخيها تحاول الوصول إلى اجابة على نفس السؤال الجارح.. ليه؟.. ولمصلحة مين؟ يقبض على أخيها وزملائه.. وهم الذين وقفوا إلى جانب (عبد الناصر) بقوه في مواجهة الجميع، حتى أولئك الذين تربعوا على عرش الاتحاد القومي.. وقبل منه هيئة التحرير.. ومنهم العمدة و(الشيخ مقبل) نفسه..

تذكرة كيف رقص هو وصديقه ابن (عبد ربه) فوق السطوح وهم يسمعون (عبد الناصر) يؤمم القناة.. وكيف أسرعا وجمعوا طلبة البلد عندما بدأت تهديدات (فرنسا وإنجلترا) بالعدوان وكونوا كتيبة قام بتدريبها (محمود الفلسطيني) المقاتل القديم مع البطل (أحمد عبد العزيز).. وكيف كانوا لجاناً من الطلبه ومن السيدات لاستقبال المهاجرين من القناة الذين ألقى بهم القطارات.. جمعوا الخبز والغموس وفتحوا المدارس عنوة.. واسكنوهم وتولوا ترتيب طعامهم وشرابهم.. وهم يرحبون وينشدون مخففين عنهم لوعة فراق أرضهم.. وكيف تسلل (فتحي) مع مجموعة كبيرة منهم شبان من (ميت الحلو) إلى بورسعيد رغم معارضة أهله.. وما كان أروع صورة قريتهم حين تكتل الناس وراءه وزملائه ليغيروا مجلس إدارة الجمعية ويفتحوا النادي.. وحين صنعوا حالة عجيبة من المشاركة الجماعية والتواصل بين كل أهل البلد لتأييد حكومة (النابلي) في الأردن وتأييد ثورة العراق والوحدة مع سوريا.. في الوقت الذي مزق قادة الاتحاد القومي في البلد المخلوعين من الجمعية أوراقها واستعدوا لاستقبال الانجليز وشنق (عبد الناصر) وعودة الملك.. لم تكن تستطيع أن تفهم ما يقوله عن أزدواجية البرجوازية.. ولا عن طبيعة العسكر وكانت ترى أن ثقتها الزائدة في الناس تضليله.. فنفس النساء والذين زغردوا له فرحا بتغيير مجلس إدارة الجمعية وفصل محو الأمية وإجبار لصوص المعونة

على رد كل شيء لأصحابه.. هن نفس النساء اللائي يصوتن ما يزلن حزننا على الرجل الذي وز عليه الحكومة بعد كشف أسراره..

أفاقت من أفكارها حين وصلوا إلى البلد التي بها سوق اليوم.. وفتح الأسطى (عبده) الباب الأمامي. وقبل أن يتزاحم النازلون ساعدها على الانتقال إلى المقعد الذي يقع خلفه، ليخلِّي الطريق لسيل الأجساد والأشولة والقفف والمشنات المنفرط من كتلة الزحام المضغوطة بين حديد العربة. وسط صيحات وشتائم متبدلة وهرج ومرج ميزت بين ضجيجه الهائل أكثر من صوت يودعها في حب حقيقي:

- السلامأمانة للأستاذ يا ست (نوال).. والنبي السلامأمانة..

• خلت العربية إلا من (نوال) وبضع ركاب قاصدين مركز (دكنس) أو (المنصورة)، موظفين وأصحاب مصالح، أفنديه وتجار ريفيين.. تنفسوا الصعداء في قرف بعد نزول نسوان السوق بحمولهن ذات الروائح النفاذة.. كان الرذاذ قد انقطع تماما وأشرقت شمس نهار الأرياء جديدة مغسلة وضعيفة.. انعكست أشعتها الواهنة على أوراق البرسيم والصفصاف وعلى زرقة أنصاف القمح المبلولة، انتعشت روحها وهي تتأمل خضر البراعم الوليدة لأشجار التوت، التي تحول باستمرار إلى بقع وكتل من الخضراء الذهبية تبعث على الفرح، وجه إليها الأسطى (عبده) عدة جمل وأسئلة لكنها لم تكن تسمع له. ولا هي في حالة تسمح بالرد عليه بما يناسب حميمية مجاملاته لها.. لاحظ شرودها فهز رأسه متعاطفا فاهما وشغل نفسه بالطريق وهو يعذرها، كانت تلوح على وجهها وفي نظرة عيونها سحابات وغيوم هم ثقيل خاص لا يقبل المشاركة..

الصقت خدتها الملتهب تتلمس طعم برودة زجاج العربية مفرقة

عينيها المغرورتين بدموعة جافة في بحر الخضراء المغسولة بالمطر.. لكن خواطرها هربت مما هي مقدمة عليه لأول مرة في حياتها، إلى هاجس قاس يلومها لأنها زودتها حبتين مع والدتها بإصرارها على إحراجه، مصممة على زيارة (سالم) رغم اعتراضه، وتحديها ما تروج له أجهزة الإعلام لأقاويل قذرة لتلوث سمعة الشيوعيين باتهامهم بالعمالة وممارسة العشق المحرم!..

تلك الأقاويل التي روج لها بقسوة (حمدي) ابن الشيخ (مقبل) زوج صديقة عمرها (عزة البكري).. والتي كانت بمساعدة أخيها (سالم) تسعى لطلاقها منه، إنقاذاً لها وله من مصير مؤلم.. ورغم ما كان بينها وبين أخيه (وحيدي).. كان؟.. نعم كان؟.. فلم تعد تحمل له أية عاطفة.. بل أصبحت تكره سيرته وتلوم نفسها بشدة لأنها سمحت لنفسها أن تخدع فيه.. تأملت أصابع يدها الخالية.. وأبتسمت لأنها أستطاعت أن تلقي بالدببة الفضية التي لبستها ارتباطاً به. وسوف يكون هذا أول ما ستزفه لأخيها الذي تحفظ كثيراً على اندفاعها.. نحوه. لعدم ثقة حدسها فيه..

حاولت طرد هذه الأفكار التي تحاصرها.. وتلح عليها بدون مناسبة.. وأرادت أن تخرج من أسرها فصاحت بالأسطوان (عبدة).. الذي أدهشته حشرجة صوتها.. فأجابها:

ـ لسه حوالي ربع ساعة.. إنشاء الله تلحقني ميعاد الزيارة.. ما تقليش.. دول جبالهم طويلاً!

تنحنحت لتبرير حشرجة صوتها التي أدهشتها هي أيضاً. وعادت تتأمل الخضراء الغنية على شاطئ البحر الصغير كانوا قد تجاوزوا (دكرين). وركب العربية ركاب من بلاد أخرى تلاميذ وطالبات ومدرسون متوجهون إلى (المنصورة).. أحسست أنها وحيدة وغريبة فتعلق بصرها بالأسطوان (عبدة) بحثاً عن ألفة ودفء افتقدتهما بعد خلو العربية من نسوان السوق، رغم كلماتهن الساخرة، وتعليقاتهن ذات المخالب.. ورائحة بضائعهن وعرقهن النفاد وجلافتهم الإنسانية..

(مش فاهمة ليه الناس ضد ان واحده تطلب الطلاق لأن جوزها

بينشلَّ لَا يتقفل عليهم الباب. صحيح سمعته زي الهباب. لكن قدامها هي يكش ويبقى فار.. تعمل إيه؟.. ذنبها إيه (البكرية) أن لها شخصية!! دا لولا (سالم).. كانت البلد قطعتها.. ولو لاها وقفتنا معها كان.. أعود بالله)..

لم يكن هناك من تشکو له غير (نوال) توأم روحها هي بدورها كان لابد أن تطلب من (سالم) أن يساعدها.. في مواجهة تعسف (حمدي) وأبوه الذي قال (المرة تعيش العمر جنب جوزها ولو عضم في قفة).. (بس هو مش عضم.. ده.. بجح وفلاطي، مع كل النسوان الا مراته.. نحلها إزاي دي)؟

لكن أباها الذي رياهم أن يعملوا ما يؤمنون به. ولا يفرطوا أبدا في احترامهم لأنفسهم. قال: (رينا ما قالش إن الواحدة تدفن روحها بالحياة) وهذا ما شجعها على ان تقف إلى جانب (عز) صديقة عمرها.. من أيام المدرسة الأولية. كانتا كالشقيقتين (روح واحد في جسدين) زي ما طلعوا عليهم.. ما قريتش كتاب إلا وعطيتهولها.. ما شافتتش فيلم إلا وحكيتهولها.. وزيها ما كملتش تعليمها لكن كبروا مع بعض وقرعوا سوا واشترکوا في اللي عملوه الطلبة في البلد.. أتعلموا أحترام البنـي آدمين.. حتى وهم ضعفا لأنهم أولاد ظروفهم الصعبة. وضحايا للجهل والفقـر والقهر.. كان نفسها أن (حمدي) يفهم ويطلق من غير شوشـرة.. لكن العـند يولد الكـفر.. وما فيـش حاجة تـذل البنـي آدم وتنجـس روـحـه قد العـنجـهـيـةـ والـكـبـرـوـغـيـةـ السـيـطـرـةـ والـقـنـزـحـةـ اللي ما فيـش سـبـبـ لها إلا قـهـرـةـ المـحـتـاجـ ومـرـضـ الإـفـتـراـ.. كانتـ الغـلـبـانـةـ متـحـمـلةـ وصـابـرـةـ تـلـاتـ سنـينـ.. فيهـ إـيهـ؟.. ليـهـ النـاسـ تحـبـ تـفـتـيـ وـإـيـديـهاـ فيـ المـيـةـ الـبـارـدـةـ، وـمـاـ تـعـذرـشـ؟ـ وـلـيـهـ الـسـتـ بـالـذـاتـ هـيـ الليـ عـلـيـهاـ تـحـطـ جـزـمـهـ فـبـقـهاـ وـتـخـرـسـ وـتـرـضـيـ بـالـهـوـانـ؟ـ.

تزاحمت الصور في رأسها.. أحسـتـ بـنـافـوـخـهاـ يـكـادـ يـنـفـجـرـ فأـخـذـتـ تستـحضرـ صـورـةـ أـخـيـهاـ وـكـلامـهـ الـذـيـ كانـ بـرـداـ وـسـلـاماـ.. برـغمـ أنهاـ لمـ تـكـنـ تـفـهـمـ مـعـظـمـهـ.. تـذـكـرـتـ حـينـ سـافـرـتـ مـعـهـ إـلـىـ مـصـرـ.. كانتـ الجـامـعـةـ

تغلى بعد إقالة (الملك حسين) لوزارة (النابلي). وكانت رية وروح ٥٦
ما زالت تملأ القلوب بالعزّة والانتصار ضد مشروع (إيزنهاور) ويُسقط
الاستعمار الأمريكي شعار على كل حيٍّ وأمل في انتخابات جاية
حرة.. والمظاهرات في كل مكان لتأييد الحركة الوطنية في (الأردن)
التي استيقظت على إمكان الخروج من أسر التبعية..

قرأت مجالات الحائط وهي ماتزال تصمم وتعد. وتعرفت على زملاء
له وزميلات، بنات زيء الورد.. تعجبت في البداية بل واستنكرت
حضورهن إلى شقة طلبة عزاب عشان الاجتماعات.. لكنها صادقتهن
وعرفت أنها تفكرون عواني (الكفر) و(ميتسيل) كانت تتبع
المناقشات (دون قصد) وهي تدخل لهم الشاي.. أو تجلس في الصالة
وكلها آذان (دون قصد) ترن في أذنيها مناقشاتهم الحامية.. الرجال لا
يخجلون من حدة البنات ولا يحسون بالإهانة، عندما تصحح لهم
إحداهن موقفاً أو تخطئ رأياً لأيهم..

لم يكونوا يوقفون جدالهم الحامي الوطيس عند دخولها.. في
البداية كانت تخاف منهم، تراهم غاضبين طول الوقت، كلماتهم جارحة
وحادة، كيف يمكن أن يتحملوا كل هذا الغضب وهذه الحدة.. ثم
يعودون للابتسام ويصبحون حين يهدأون أليفين ودودين، يتبدلون
النكات والقفشات.. في ود وحب.. كان هذا يثيرها ويحيرها.. من هم؟
زملاء أخيها.. قلبها امتلاً بالثقة لذلك.. ذات مرة تجرأت، جلست على
حافة الكنبة، بعد أن وضعت الشاي على المنضدة وسط المتغاضبين..
بعضهم لاحظ ذلك وساد صمت.. فقامت محرجة.. لكنها في مرات
أخرى وجدت نفسها تتجرأ.. فتورطت في المشاركة. رأيها جاءَ عفو
لحظة والخاطر.. أدهشتَها أن يلقي كلامها قبولاً.. في مناسبات أخرى
كانت الأمور أبسط كثيراً، وأيسر عليها خاصة عندما لا يكون هناك
نقاش حاد وحين يسود المرح جلساتهم ويأتي ذلك المغني بعوده..
وتطلق الحناجر لتردد أغاني (سيد درويش) التي حفظتها عنهم
وصارت تغنى بعضها.. و أكد لها البعض أن صوتها جميل وتلقائي.. ولم
تفهم.

وفي مرة كانوا يتناقشون حول الانتخابات وتوقع بعضهم غاضباً
الآثار السيئة لفكرة اعتراض الحكومة والاتحاد القومي على بعض
المرشحين.. وقال إنها بداية غير مبشرة، فالآن من متغلغل في الاتحاد
القومي الذي يعج بأمثال (الشيخ مقبل) في كل مكان بل وهم الذين
يتحكمون فيه.. يومها وجدت نفسها تعلق وسط الاحتداد الغاضب
الذي يسود الجلسة.. قالت وهي تضع صينية الشاي وسطهم:

- الحكاية دي عاملة زي ما يكون الناس جعانة ومستنظرین أكلة حلوة.. لكن الأم حطت لأولادها ملح انجليزي بدل الملح بتاع رينا.. ساد صمت.. تلته دهشة، الكل تطلع اليها في اعجاب، ثم انفجروا ضاحكين لقد وضعت يدها على تشخيص عبقرى للحالة.. شجعواها هذا على أن تقول..

- آي والنبي.. بس أنا بيتهيألي أن (عبد الناصر) قصده يحط ملح
عادي.. بس فيه حد شراني بدل له (زروية) الملح في السر.. أو يمكن هو
انكسيف يكشف الملعوب أو يعترف بيـه. وقال أهو ملح والسلام عشان ما
يفسدش الفرح..

تذكرت تعليقاتهم على قولها.. ودهشتهم للبساطة التي شخصت بها الأزمة.. وابتسمت لاصورة التي تلت ذلك حين تحولت كلماتهم الغاضبة الحادة إلى اعجاب مرح بها ويفصّلها الفطرية النافذة..

لح الأسطى (عبده) ابتسامتها في المرأة وكان لا يكفي عن مراقبتها في تعاطف أبي.. فقال معلقا في هرج:

- أيوه كده يا سرت (نواذ).. النبي تبسم.. والنبي بكره تفرج.. وح يخرج غصب عنهم منصور وفايز.. التاريخ بيقول كده.. بس الناس بتنسى مش بتذاكر تاريخها.. سارقاها السكينة..

اتسعت ابتسامتها وأشعت مع انحناء الطريق إلى الكوبري، حين غمرت شمس الصباح فراغ السيارة، ردت على مجاملاته بكلمات قالها (سالم) ذات هرة:

وإلا عجلته تدوس الكل.. وخصوصا اللي غفلانين ومش قاريين
قوانينه.. كل اللي سايق مادام في إيده بندقية والا كرياج.. ح يضرب أول
ما يضرب ركب العربية لما يحرن الحصان.. ولو الحصان نخ بيهم، ح
يرميهم من العربية يخفف حملها أو عشان ينجي نفسه ويوصل
لفرضه.. الغرض مرض.. الرك على السوق يا عم (عبده).. والا كانت
عربيتك دي بكيفها عملت مليون مصيبة لحد ما توصلتك (المنصورة)..
قهقهه الأسطى (عبده) وقال:

شاركته ضحكاته بكثير من الجاملة.. كانت العربية قد عبرت
لکوبري وأقتربت كثيراً من مبني السجن.. نبهها إلى ذلك.. فأسرعت
نسوي ملابسها، وتقرب السبت من الباب. طمأنها وطلب منها أن
ستريح.. فهو لن يرميها من العربية بعد الشر. ولو لزم الأمر لذهب بها
حتى البوابة.. شكرته من قلبها.. ركن في هدوء إلى جانب الطريق
 وأشار إلى مبني السجن قائلاً:

- على مهلاك وانتي بتعدى الطريق.. وعلى فكرة ح أكون هنا وأنا
راجع الساعة ثلاثة ونص بالدقيقـة. انشاء الله تزوري وربنا يوفقـك
ترجـعـي معاـيا والسلام أمانـة..

حملت السبت بين يديها ونزلت وهي تودعه.. لوح لها وانطلق بينما
وقفت هي تتأمل المشهد و تسترد أنفاسها المبهورة.. عندما وجدت نفسها
بعد مضي العربية أمام السجن في مواجهة مباشرة.. وهي التي طالما
تخيلته أكثر كآبة مما هو عليه.. كانت تتوقع مكاناً بائساً رهيباً.. فإذا
بها ترى مبنياً متأنقاً مدهوناً حوله خضرة وناس.. زي غيرهم..
متبعرين ع السكة وتحت الشجر..

كان سجن (المنصورة) بجوار غابة من أشجار الجازورينة والكافور..
تمتد لعدة أفدنة على مدخل الطريق الجنوبي المؤدي إلى (القاهرة)..
وتمتد أمامه المزارع حتى شط الرياح التوفيقى القريب في الشرق..

وأمام بوابته مساحة زراعية حوالي فدانين مزروعين بخضروات مختلفة، تحيط بهما وتتخللهما عدة أشجار خروع وفيكس مزهر. ويقصاها عن تلك الغابة الطريق المتجه غرباً، والذي يقطعه شريط السكة الحديد.

عبرت (نوال) في وجل خفيف الطريق إلى السجن، كان هناك عدد كبير من أهل المساجين القادمين للزيارة، جالسين في استسلام وهدوء الذين تعودوا الفقر والقهر. وبعضهم يتحرك في ملل.. كان البعض يحمل أسبته أو قفف. والبعض يحمل أكياساً منتفخة من القماش.. وشاهدت شنطة من القماش فابتسمت وتدكرت كيف أرادت أمها بناء على نصيحة أبيها أن تأخذ الزيارة في الشنطة الجلد، فحمدت الله أنها لم تطع النصيحة وجاءت بالسبت.. كان ح تبقى نكتة!

في هذه اللحظة فتح باب صغير في بوابة السجن وخرج منه مجموعة من المساجين في ملابسهم الخضراء متوجهين تحت قيادة عسكري قصير كأبي فصادة.. إلى تلك المزرعة.. وأخذوا يمارسون الفرجة والتطلع إلى الأهالي.. وبعضهم يشير إلى فمه طالبا سجائر وهم يعبرون القناة الصغيرة إلى المساحة الخضراء ليباشروا في كسل بعض العمليات الزراعية..

قطع المنظر طابور من حرس الدرجة الثانية يسير في تكاسل. وفي شبه فوضى، وأفراده يتبادلون التعليقات ضاحكين، وعند كل عسكري حراسة ينسلك أحدهم من الطابور للوقوف بدلاً منه.. بينما يلتتحق هذا بمؤخرة الطابور ضاحكاً لانتهاء فترة صلبة.. فجأة ارتبك الطابور مع صيحة حادة جاءت من داخل السجن تلتها تكتات بنادق وضريرات أقدام ثقيلة..

- انتباه..

على الفور انتظم الطابور المرتبك في هلع واضح، لأنما شاهد أفراده عفريتا. وانتظمت على الفور خطوتهم وهم واقفون يحاولون الانتظام.. بينما شد الشاويش الذي يسوقهم قامته وهو يتطلع في ترقب خائف إلى بوابة السجن، التي ما لبثت أن فتحت على

مصارعيها.. وانهمك المساجين في أعمال شبه جادة ووجوههم للأرض، وأسرع حراسمهم يشهرون أسلحتهم في وضع الاستعداد. خرج مأمور السجن فارع الطول، يجر خلفه مؤخرة واضحة.. مرق من البوابة متوجهًا إلى سكنه الكائن فوق البوابة، بعد جولته الصباحية الروتينية.. وفجأة كأنما تذكر شيئاً إستدار وتقدم ناحية الزوار، في اهتمام من يريد أن يقول لهم شيئاً، وحين فوجئوا باقترابه.. أخذ كل منهم يعدل جلسته أو وقوته في خوف.. أو في تظاهر بالخوف احتراماً للبasha.. الذي عاد فتذكر فجأة أن لا شيء هناك يعنيه بالتحديد فاستدار مرة أخرى عائداً إلى حيث باب مسكنه.. وكعب الأحذية يضرب بعضها بعضاً بعنف مع كل خطوه يخطوها.. بينما.. الصواعجوز يصرخ كل برهة بأعلى صوت ممكن

- انتباااااه

وما أن اختفى المأمور داخل بيته، حتى انقضت خلفه سحابة الرعب.. وعاد العساكر للتضاحك والتعليقات الساخرة وايذاء بعضهم البعض أو خطف السجائر المشتعلة بينما تراخي مساجين المزرعة وجلس بعضهم مشعلاً سجائر قصيرة للغاية..

ولم تدر (نوال) التي أدهشتها وأريكتها ما حدث.. ماذا تفعل؟ لكنها كانت قد أصبحت وسط الجموع المتاثر وادركت أنهم بالفعل أهل وأقارب مساجين مثلها جاءوا للزيارة.. فشجعت نفسها وقررت أن تتصرف مثلهم.. وتفعل مثلما يفعلون.. وخجلت أن تسأل أحداً منهم فتظهر خيبتها وعدم خبرتها وهي التي تبدو مختلفة وأكثر معرفة بحكم مظهرها الخضراء..

ظهر من البوابة عسكري سجان رفيع كالبرص ذو صوت جهوري، لا يتناسب مع حجمه الهزيل وهو يصبح ملوحاً بخرزانة رفيعة وطويلة أكثر طولاً منه يهدد بها الأهالي وهو ينادي عليهم:

- الزيارة.. يالا طابور الزيارة يا غجري يالا يا أخيانا هنـاك له.. هنا.. هنا.. كلـه طابور ورا ده.. صاحت امرأة ذات خبره..

- رجاله على نسوان يا (غريب)

فرد ساخرا ملعا العصا بحركة قبيحة

- ايوه يا ست أبوها.. رجالة على نسوان همه فين الرجاله دول..

بلغ السامعون الإهانة.. وهم يسرعون ويترافقون خلف الذي اصطدفاه منهم. واضعا كفيه على كتفيه فأعطاه ميزة الأولوية فقدر له هذا وصار عجينة في كفيه و(غريب) يداعب قفاه في آلة ضاحكا كأنما يداعب جميع أقفية المترافقين. وفجأة يجذبه إلى الجانب الآخر حيث الجدار فيجبرهم على الإسراع خلفه.. وهم يتبعثرون في أحماهم دون احتجاج..

تزاحمت (نوال) مع من زاحموا واتخذت لنفسها موقعا في الطابور، وقفت تنتظر حاملة السبت مثلما ينتظرون.. لاحظت أن العسكري الذي يشبه البرص ذا الصوت الجهوري يتبادل مع الواقفين الهمسات والغمزات والقفشات.. مما يوحي بدوام العلاقة والمعرفة.. بل كان له دلال على البعض.. لكن الجميع كانوا يعلمون له ألف حساب وينافقونه رغم هزال منظره.. وحين اقترب منها أخذ يتفحصها وقد لاحظ عليها ارتباك المرة الأولى بعين خبيثة.. فابتسم وحاول أن يتظرف بها ولكنها لم ترد سوى بنظرة جامدة متوجهة، جعلته يتراجع مؤثرا السلامه وهو يزغر فيمن حولها ويُشخط..

جاءت وقفتها عند ناصية جدار السجن المتمد من البوابة حتى الطريق المتوجه غريا.. حيث بوابة أخرى ضخمة تؤدي إلى حوش السجن في أول الجدار الجنوبي العالي الذي تعلوه عدة أبراج يقف بها عساكر مسلحين، لم تستطع أن تخمن كيف صعدوا إلى هناك..

فتحت البوابة الجنوبية الكبيرة للسجن فجأة مصدرة صريراً أفزعتها، واندفع خارجاً منها إلى جوارها سجان مسلح، ثم صوّل عجوز طيب الملامح ينهج ويتنفس بصعوبة، شاربه المبروم بصورة مبالغ فيها يتشنج بعصبية مع حركة شفتيه المزمومتين على فم خال من الأسنان.. اقترب منها بشدة حتى لفحتها أنفاسه وهو يخلق الطريق

لعرية زيالة قذرة ومهترئة بليت ورقت حوائط صندوقها بصفائح
صدئه. يجرها حماران هزيلان قدران يسوقهما زيال اكثراً قذارة..
وحاضرتها رائحة نفاذة خليط من رائحة زناخة حادة وعفن بقايا
أطعمة ويقايا بشر.. لاحظ الصول ارتباكاً المشمئز فابتسم في طيبة
أبوية.. كانت تبدو غريبة ومختلفة.. سألهَا:

- زيارة خاصة؟

ووجدت في كلمة (خاصة) تميزاً ما، وإن لم تفهم لكن وجدت نفسها
تهز رأسها في مجاملة ضرورية لعجز طيب مثله. تركها وتقديم من
العرية القذرة ودق وجس جوانبها بعصا حديدية حادة وطويلة وهو
ينظر أسفل الصندوق وحوله ثم ضرب الزيال بالعصا القذرة في
مدامبة ثقيلة وهو ينأوا لها له في قرف..

- عدي يا ابن اللبوة..

وانتبه لوجودها فغمز لها معتذراً يخفف من وقع وقاحتة الفكهه..
بينما راح سجينان في ملابس خضراء يصارعان ضلافة الباب الثقيلة
لكي يغلقا البوابه ذات الصرير.. سألهَا هامساً كمن تعود ألا يسمح
لأحد أن يلاحظ تحطيمه للحدود القانونية لدرجة خيل إليها أنه
يتحدث من بطنه.

- لك مين عندنا؟

ردت بالهفة وهي تتسح حوش السجن بعينيها في دهشة حقيقة
وريكة:

- أخي الأستاذ (سالم) ..

- (سالم) مين؟.. الشيوعي..

فوجئت لاهجته المتعجبة ثم صمته المفاجئ. إذ لم ينتظر سماع
إجابتها، وأشار للسجينين أن يسرعا باغلاق الضلافة الأخرى بسرعة.
وانسحب إلى الداخل.. مبتسمًا خفية لها في اعتذار حقيقي من عدم
إكمال الحديث مما ضاعف قلقها غير المبرر.

لكن دهشتها الحقيقة كانت لما رأته في حوش السجن.. كانت هناك
خضرة زاهية منظمة ومنتظمة بها عرصات بزهور بنفسجية وحمراء

نظيفة وزاهية. وهناك ملعب لكرة السلة مخططًا بالجير وملعب آخر للرا��ت أكثر نظافة وتنسيقًا من ملعب مثله رأته في المدرسة الإعدادية. وأمام مبنى مركب منخفض شديد البياض مسقوف بجماليون من القرميد الأحمر، جلس أحد الضباط تحت مظلة شاطئ ملونة.. بينما أحد المساجين منهمك في تنظيف حذائه.

فوق المبنى ترتفع مدخنة سوداء طويلة، لها رأس عجيب ت النفث دخانا كثيفا ثقيلا لا يطيق هواء الصباح الشتوي حمله فينقض في نفاثات غليظة مهاجمًا سطح الأرض لينداح فوق الحشائش والرمال النظيفة ناسرا رائحة غريبة لا تدل على نوع الوقود المحترق..

خرج من الباب الرئيسي سجان يحمل دفترا ضخما أغبر اللون. ووراءه مسجون مرير يحمل منضدة صغيرة شديدة القذارة.. وكرسيان مدعما بعدة قطع من الخشب.. فسرت همهمة سرور وارتياح بين أفراد الطابور (الملكية) وهمس البعض:

- خير.. ظلّع بدري النهارده على الله ما نتاطعش كثير.

جلس السجان على الكرسي بعد أن رکز المسجون المنضدة وثبتها إلى جذع الشجرة على حافة قناة المزرعة الجافة.. وتطلع إلى الناس في تعال ثم فتح الدفتر.. وتنازل مشيرا إلى أول رجل في الطابور.. فتحرک الطابور كله وراءه.. فلعلعت خرزانه العسكري البرص ورفت في الهواء غاضبة:

- واحد واحد.. يا بهائم!

رنت كلمة بهائم في أذنها فاحمر وجهها خجلا وغضبا.. وأحسست بإهانة فظيعة وصعد الدم لرأسها حتى كادت تخنق بدموعها.. (بهائم !!)

لسعت الخرزانة لحم أكثر من واحد وواحدة.. فكتمت ما بنفسها. والسؤال يلح على خاطرها - ماذا ستفعل لو أن الخرزانه طالتها كالأخريات؟

زغدت المرأة التي أمامها المرأة التي أمامها، ودفعتها بقسوة لأنها

داست على قدمها، وهي تراجع خشية الخزانة وبرطمته بصوت مكتوم:

- ما تحاسبني.. يا جاموسه انتي !!
لم ترد المرأة المشتومة.. فقد كانت ماهية تتبع ذراع الشاويش المنهك في لسع اللحم البشري.. وأشار إليها السجان الكاتب فنسقت الشتيمة وأسرعت في طاعة فرحة ولهمة.. وأطال السجان الحديث الضاحك معها، بل وقريت المرأة المشتومة رأسها منه ليهمس لها بشيء ما ثم ضحك هو الآخر.. مما أثار الملل في الطابور.. وما انتهى بسرعة من المرأة الشاتمة، أشار إلى (نوال) فارتبت وكادت تنسىأخذ السبت معها.. لكنها أخيرا وصلت إلى حيث المنضدة دون أن تتعثر أو تسقط.
قال وهو يقيس قدماها ورعشة شفتيها..

- الاسم ..

قالت بسرعة وبدون تفكير..

- (نوال عبد القادر محمود)..

رد في قرف وهو يصعد ويهبط بنظرة زهرة:

- سجن النساء.. شوية.. اتلقحى هنا لحد ما اندى لك

تداركت الأمر بسرعة وارتباك لم يعطها فرصة للانتباه (اتلقحى).. هذه وقالت..

- لا.. ده اسمى.. متأسفه أنا باحسب إنك عايز اسمى أنا

نهرها في قلة زوق :

- ليه.. حا اصحابك؟ عايز اسمك بعدين، أنا عايز اسم المحروس

اللي أح تثيلي تزوريه

زاد ارتباكاها امام السيل البدئ من الكلمات الذي لم تتعود عليه

لكنها لم تستطع الا أن تتحج:

- يعني إيه اتنيل؟ ليه كده؟ هو لازم تشتم.. أنا أتأسف لك.

لم يلاحظ لهجتها المؤذبة بل أغراه ضعفها وارتباك لهجتها، فقام

نصف قومة وصاح في غضب مهاجم:

- نعم؟.. نعم يا اختي؟.. انت ح تعلميني شغلي؟

سرت همهمة في الطابور لهذا التعطيل.. ورددت هي بعد ان بلعت ريقها الجاف في حزم وهي تقاوم انهيارها:

- لأنك شغلك انت أدرى بيـه - بس ليه تشتم ؟

سخر من لهجتها القاطعة لكنه لم يستطع تجاهل أن الأمر ليس على ما يرام.. وانها ليست سهلة:

- آسف يا ست الهوانم.. البـيه المـسـجـونـ اللي جـايـه تـزـوريـه حـضـرـتكـ اسمـهـ النـبـيـ حـارـسـهـ ايـهـ ؟

أرادت أن تفوت عليه فرصة الاشتباك، فتجاهلت لهجته الساخرة وردت في كبراء:

- أخـوـيـاـ مشـ مـسـجـونـ.. أخـوـيـاـ مـعـتـقـلـ سـيـاسـيـ الأـسـتـاذـ (ـسـالـمـ عـبـدـ الـقـادـرـ)ـ ..

ظلت ان عقرياً لسعته، حين رأته انتفض بعد انأغلق الدفتر في عصبية وغضـبـ.. استجمعت كل قواها لتواجـهـ موقفـهـ الغـرـيبـ.. وصممت على عدم السماح له بالاستمرار في سخريـتـهـ.. وشدـتـ قـامـتـهاـ استعداد للدفاع عن نفسهاـ. بينما أضاف وكأنـهـ يقطع الطريقـ عليهاـ ويحرجـهاـ:

- زيـارةـ خـاصـةـ ؟

قالـتـ فيـ تـحدـ وـحدـةـ. وقدـ جـفـ رـيقـهاـ منـ التـوتـرـ، دونـ أنـ تـفـهـمـ معـنىـ سـؤـالـهـ:

- أيـوهـ ..

اختطفـ الدـفـتـرـ وأـسـرعـ هـارـيـاـ يتـلـفـتـ وـراءـهـ وـدقـ طـاقـةـ الـبـابـ فيـ عـصـبـيـةـ وـاخـتـفـىـ دـاخـلـ السـجـنـ وـعلـىـ وجـهـهـ دـهـشـةـ أـقـلـقـتـهاـ: تـقـدـمـ منـهاـ الشـاوـيـشـ (ـغـرـيبـ)ـ فيـ حـذـرـ وـتـوـجـسـ :

- اـنـتـيـ قـلـتـيـ لـهـ ايـهـ ؟

- زيـارةـ خـاصـةـ ..

- أيـوهـ أيـوهـ .. مـلـينـ ؟

- لأنـهـ أـخـوـيـاـ الأـسـتـاذـ (ـسـالـمـ)ـ المـعـتـقـلـ السـيـاسـيـ ..

- خـاصـةـ ؟ـ مـعـاكـ اـذـنـ الـنيـابـةـ ؟ـ

قالها وابتعد عنها وهو يضرب كفا بكتفه.. لكن بقية الطابور التفوا حولها وأمطروها بالأسئلة متحججين غاضبين..
ـ إيه اللي عملتني؟.. دلوقتي يلغوا كل الزيارة

ـ ح تكوني انتي السبب في مشورتنا على القاضي؟

ـ لازم يعني القنزة الكداية.. ده سجن..

لم تعد تسمع أو تميز الجمل أو حتى الحروف خيل إليها أن الكتلة البشرية التي حولها تحولت إلى حيوان بألف ذراع تلوح وتشوх في وجهها.. والف لسان يلسعها بكلمات حادة.. وألف عين تطلق شرارة غضبا.. لكنها استجمعت قواها.. ونظرت في عيونهم مباشرة وهي تستمد بعض القوة بالاستناد إلى الشجرة.. تحاول صد هذا الحيوان الأسطوري الذي يقترب منها أكثر..

كانوا مثلكم تماماً.. نساء ورجال على سلم منزلكم.. جاءوا يصرخون مستنجدين (بسالم) - زوجات وأرامل عجائز وعجزة يطلبون ذهابه معهم لإنقاذ المعونة الأمريكية التي وصلت إليهم في المستشفى، قبل أن ينهبها اللصوص الذين أخفوها وانكروا وصولها إلى حين فرصة.. لتتسرب لذوي الحظ والأقارب أو لبيوت لا تستحق.. أو لتباع في دكاكين بعيونها.. زيت وجبنه ولبن.. لا أحد يمكن أن ينقذها لصالحهم سوى (سالم).. ومضوا خلفه، وهم يت صالحون إلى المستشفى.. وهناك لحق بهم أصدقاؤه من الطلبة.. واستطاعوا يومها افشال مؤامرة سرقة المعونة.. وتوزيعها على أصحابها.. كانت لوجوههم نفس الملامح المتردية المتعبة.. ولكنهم كانوا يزغرون ويلوحون شاكرين ونظرات العيون كانت مليئة بالعرفان لا بالغضب.. المقارنة أعطتها قدرة أكثر على التماسك.. فتغلبت على خوفها وارتباكتها.. وقالت:
ـ أنا آسفه.. أنا ما عملتش حاجة.. أنا أول ما قلت له اسم أخيها

ـ اللي جاييه أزوره.. عمل كده..

رد أحد هم:

ـ يا ستي يعني كان لازم تقولي له الأستاذ.. هو احنا هنا في الجامعة.. تلامذة.. دول مساجين.

- حيطلע تهمته إيه يعني الاستاذ ده؟.. نصاب والا مخدرات..

التفت ناحية الصوت في غضب.. ونظرت في عين الرجل مباشرة فاضطرته لارباء جفونه.. والتراجع..

- لا ده أستاذ.. ومش نصاب.. ده سياسي.. ثم ليه السجان يشتم وهو بيسأل.. مش من حق حد يشتمكم ولا يشتمني.. هو احنا بهائم.. زي ما قال.. انتو بهائم؟.. انتو مصريين أحسن منه.. لكم حقوق وأحترام.. مش بهائم..

تراجع الجميع.. ووجدت نفسها تلوح بذراعيها وكأنها تخطب.. وساد صمت.. حتى (غريب) أخذ يضرب بنطلونه بالعصا.. ثم تنبهت هي لنفسها فتوقفت. وكلهم يحملون فيها وقد اكتشفوا أنهم مجموعة من الحمقى.. وتراجعوا بلا نظام وانقضوا من حولها.. وقد أحسوا بضلالتهم.. وغمّرهم خوف مجهول..

أسرع (غريب) البرص الذي كان يراقب الموقف. وكان قد سره هجومهم عليها لينتقم لعدم خوفها منه وليكسر كبرياتها. ولكنه حين شاهد انقلاب الموقف أسرع يفرقع بالعصا في الهواء ليعيد النظام المنها إلى الطابور.. تاركاً إياها وحدها إلى جوار المنضدة المهجورة.. عاد الشاويش حاملاً الدفتر مرة أخرى فسرت مهممة تساؤل وارتياح بين الزوار.. سألهما في اصرار:

- زيارة خاصة؟..

دون أن تفهم ما يعنيه ردت في اصرار:

- أيوه..

التفت إلى شاويش أشقر كان يتبعه في هدوء وعيناه تشعلان طيبة كفلاح انتهى على الفور من ضم الغلة وجلس يرتاح وهو ينهرج..

- قول لها يا عم (حسن).. فهمها.. الأصول واللوائح..

زم عم (حسن) شفتيه في حزم واسكته..

- شوف شغلك انت.. بلاش هلضمة..

التفت الشاويش ذو العيون الخضراء الدامعة نحوها ومد يده في طيبة وسحبها بعيداً وقال في صوت هامس

- انتي فاهمة.. هنا بتنفذ أوامر.. لكن أنا متأكد ان ثورحتي النيابة
وطلبت زيارة.. ح يعطوكى تصريح بإذن الله.. النيابه قريبة.. هنا فى
المختلط..

- طب ممكن تأخذ الأسبت ده له يا عم (حسن)..

کاد ییکی و هو یرفض و یتلافت حوله و یهمس لها :

- دلوقتي ما ينفعش كل العنين عليكى.. والباحث مفتوحة. وكل حاجة تدخل له لازم تفوت عليهم.. انشاء الله لو جيبيتى الاذن ندخل له الزيارة.. اتوكلى على الله.. المختلط في آخر الشارع ده.. ياللا.. ورينا معالى.

• ما أن تأكد الصول (مصطفي) من إغلاق البوابة القبلية للسجن
جيداً وتمم عليها حتى نفح المسجونين اللذين كانوا يساعدانه على
إخراج الزيالة بضع ضربات لاسعة بالخرزانة وصاح فيهما وهو يسعى:
- باللا لا ابن الكل انت وهو .. ع الحوش ... مش عاب قشابة

واثناء مروره حيَا الضابط المندمج في الاستماع لنديمة المساجين
المنهمك في تلميع حذائه اللامع.. لم يعره الضابط التفاتاً.. فزم
شفتيه ولعن أبو قلة أدبه في سرّه كالعادة واندفع يحجل إلى الفرن.
اختار ثلاثة أرغفة ملديني من الخبر الصابح الخاص بالسجانية.. لفها
في ورقة جرنان قديمة أخرجها من طيات چاكتته المكوية.. رمق
الضابط بطرف عينيه ثم ناولها لولد من المساجين وهو يغمز له مشيرا

له برأسه إلى العنبر.. فهم الولد المطلوب وتطلع خارج الفرن ليتأكد من انشغال الضابط، تسلي مستترا بمبني المغسلة والحمامات ثم المكتبة.. وقطع المسافة المكشوفة نحو بوابة العنبر، ليسلمها لحارس البوابة هامساً باسم حضرة الصول وعاد محاذراً أن يراه الضابط من نفس الطريق. أبتسם عندما أبصر الصول قادماً يحيى الضابط مرة أخرى وهو متأكد أنه لن يلتفت إليه ولن يرد تحيته.

ماعت نفس الصول (مصطفى) الذي كانت بطنه قابلة عليه كعادتها من شرب السجائر - على الريق ورائحة الزيالة المعفنة، التي تحاصره كل صباح منذ أصبح جمعها والإشراف على تحميلاها ونقلها إلى خارج السجن مهمته بعد كل سنوات الخدمة الميري باعتبارها أخف مهمه تليق بسنها وصحته المعتلة. ولما عرف أن للشيوعي (زيارة خاصة) وجدها فرصة لإفطار جيد عنده. وفرصة أن يبشره بأول زيارة.

سأله سجان بوابة العنبر في تورية واضحة:

- أحضرك في الدفتر يا حضرة الصول؟

شخط فيه الصول (مصطفى) بجدية وهو يخطف لفة الأرغفة من على المكتب:

- حضروك للخارجية بدري ..

وازاحه من طريقة وهو يشد قامته البالية المنحنية على ساقيه المقوستين ثم برم شاريء وهو يصرخ بالهجة حاول أن يجعلها صارمة بما يكفي:

- يا شيوعي.. انت يا شيوعي ..

غلبته نوبة السعال الريوي وأجبرته بعد كل هذا الجهد أن يستند إلى درابزين السلم. لحظات وأطل (سالم) من أعلى سور الحديد الممتد أمام زنزانته في دور «٢» مستطلاً ولا حظ الصول ثلاثة مساجين محكومين يسرعون متسللين من زنزانته ليختفوا في الزنازين المجاورة. فقال ساخراً:

- انت عامل اجتماع يا مسجون والا مؤتمر.. إيه الفوضى دي؟!

ضحك (سالم) متوجهلاً تلميحه وهو يقول:

- يا مرحب يا حضرة الصول، حماتك بتحبك.. القعدة كانت
مستنياك.. الفطار جاهز من الصبح في انتظار تشريفك.
رفع الصول نفسه سلمة بعد سلمة.. ثم حيا الشاويش (عبد
التواب) الذي رد تحيته باهمال وهو مندمج في متابعة المساجين
المنهمكين في تلميع الحديد وجلي البلاط.

على البطانية المفروشة على أرض الزنزانة كانت قروانة عسل
تتوسطها قطعة كبيرة من الحلاوة الطحينية وأخرى بها قطعة جبنة
قديمة ضخمة غارقة في الزيت وحولهما كمية من بقايا خبز الأمس
وعدة بصلات.. نظر الصول للمائدة العامرة في قرف وفاك ريشة الخبز
الصباح ناوله رغيفين وهو يفرد الثالث كالمنديل المحلاوي على كفيه.
وقال وهو يرد الباب ويستد مؤخرته على جردن الماء في امتعاض
واضح.

- إيه ده؟ ماعنديكش حاجة ملكي يا مسجون، أمال اشتراكية إيه
بس؟

أسرع (سالم) إلى المخلة المغلقة خلف باب الزنزانة.. أخرج علبة
بولييف فتحها بسرعة.. قبل أن يحضر طبقاً ليفرغها فيه.. خطفها
الصول (مصطفى) وقلبها في الرغيف ثم لفه بحرفة على هيئة
ساندوتش ضخم وانقض ناهشاً ريعه في قطمة منهم محترف وهو يقول
محذراً، وخدأه المنتفخان لا يعوقان تماماً حروف كلامه المتختمة:

- مافيش وقت. أصل صاحبك الرزل هو اللي فاتح النهارده ولوحده
متلقي في الحوش.

ثم أخذ نفساً لاهثاً وأكمل محاولاًً إنهاء المأمورية بأسرع وقت كمن
يتوقع كبسة مفاجئة.

- إبرز الونجز وولعها على باي ما أخلص..
إبتسم (سالم) مشفقاً أن يختنق بالريع الأخير من الساندوتش
وأسرع يلبي طلبه وهو يقول:
- انت تؤمر يا أمير..

أشعل السيجارة وناولها له بعد أن فرك كفيه، ونظر ما تناثر على
الچاکته من فرافيٰت الخبر واللحم وتأكد من استعادة كمال القيافة
الميري والتخلص من كل الملاحيظ فتنازل وقال في جدية كاملة:
- على فكرة.. أنت عندك زيارة النهاردة.. وخاصة كمان!
فوجئ (سالم) ولم يصدق أذنيه.. فأسرع يقطع عليه الطريق
متشبثاً به..

- إيه؟ تعالى هنا.. زيارة إيه؟
- زيارة خاصة هوه ده فيه هزار.. اختك كانت برة هيـه اللي قالت لي
بالمقمارة معاهـا سبت مستـف والله والحبـسة ح تحلـو..
- اختـي؟ وعرفتها منـين؟.. معقول؟ لوحـدهـا؟.. شـفتـها امـتـى؟
إبتسـمـ الصـولـ (مـصـطـفىـ) مشـفـقاًـ عـلـيـهـ:
- ما تـثـبـتـ يا مـسـجـونـ.. ايـوهـ اختـكـ ما اـعـرـفـشـ لـوـحـدـهـ واـلـاـ لـأـ.. لـكـ
كلـمـتـهاـ وـأـنـاـ باـخـرـ الـزـيـالـةـ وـدـلـوقـتـيـ.. يـنـدـهـواـ عـلـيـكـ.. جـهـزـ نـفـسـكـ؟
ماـلـكـ كـدـهـ مـهـمـلـ حـائـكـ وـسـاـيـبـ دـقـنـكـ.. ياـ (عـبـدـ التـوـابـ)؟ـ
إـلـتـفـتـ الشـاوـيـشـ (عـبـدـ التـوـابـ) وـرـدـ فيـ قـلـاطـةـ مـتـعـمـدةـ!
- ايـوهـ يا صـولـ..

- حـ اـخـدـ المـسـجـونـ لـلـصـالـوـنـ يـحـلـقـ ذـقـنـهـ وـارـجـعـهـ
- يا عمـ اـنـاـ اـفـتـكـرـتـ حـ تـاـخـدـهـ بـلـاـ رـجـعـهـ..
إـبـتسـمـ الصـولـ فيـ تـعـبـ وـرـدـ لـاهـثـاـ بـسـبـبـ ماـ بـذـلـ مـنـ مـجـهـودـ:
- لاـ.. لـسـهـ بـدـريـ.. المـشـوارـ لـسـهـ طـوـيلـ، دـاـحـنـاـ ياـ دـوـبـ بـنـقـولـ بـسـ اللهـ
الـرـحـمـنـ الرـحـيمـ.. اوـلـكـشـيـ لـسـهـ اوـلـ زـيـارـةـ..
جلس (سالم) قـلـقاـ متـوـتـراـ عـلـىـ كـرـسيـ الـحـلـاقـةـ، لـاـ تـهـدـأـ لـهـ حـرـكـةـ
مـاـ تـسـبـبـ فيـ أـنـ تـجـرـحـهـ المـوـسـيـ عـدـةـ مـرـاتـ فـرـاحـ المـسـجـونـ يـعـتـذرـ
مـقـسـماـ أـنـ الذـنـبـ لـيـسـ ذـنـبـهـ، بـيـنـماـ (سـالمـ) لـاـ يـكـفـ عنـ اـسـتـجـوابـ
حـضـرـةـ الصـولـ مـضـيـفاـ جـرـوـحـاـ جـدـيـدةـ معـ كـلـ حـرـكـةـ مـفـاجـئـةـ.
- وجـابـتـ تصـرـيـحـ الـزـيـارـةـ اـمـتـىـ؟ـ.. بـسـ وـالـلـهـ بـرـافـوـ.. قـالـتـ لـكـ إـيهـ؟ـ
- تـقـولـ اـيـهـ ياـ اـبـنـيـ وـ(عـطـيـهـ) بـتـاعـ المـبـاحـثـ مـكـهـرـبـ الجـوـ فيـ المـكـاتـبـ.
رـيـنـاـ يـفـوتـهاـ عـلـىـ خـيـرـ.

حمد المسجون الحلاق ربّه، وهو يدعوك جروح (سالم) بالشّبه (انها
جت على قد كده).

أعطاه (سالم) سجارتين ثم ناول الصول بقية العلبة ليقسم ما بها مع سجان الصالون وانطلق عائداً إلى زنزانته ليستعد للحدث الكبير بينما صاح الصول على (عبد التواب) ليسلم مسجونه وخرج من العنبر وهو يشد قامته المنحنية متارجاً فوق ساقيه المقوستين..

لاحظ عندما خرج من العنبر أن الضابط (ممدوح) الذي يسميه (الرزل) لم يعد هناك فمشى يتهدى تاركاً حركة جسمه المتمايلة على قدر آلام الروماتيزم، تأخذ راحتها، لكنه سمع صوته العاصف يأتي من المكاتب فأعاد شد قامته متحاملاً على ألمه وتسلى ليراه يصرخ في

صَدَقَةٌ:

- جرى إيه يا (حسن يا عطيه)..؟.. ما معهاش تصريح زيارة خاصة
يبقى بالسلامة ماتزورش..

رد الشاويش (حسن عطّيّه) في صوت واهن وقد إزد وجهه لضيق

- نخلها تزوی سلائی با افزایش همکاری

- وانت مالک؟ هي طلبت زيادة سلائک؟.. ما ترد. ما طلبتش.

- قال (حسن عطّيه) في صوت خفيض معذراً ومستحداً:

- یمکن ما تعریفش یا افندم..

- وانت مالاک، عنها ما عرفت هيye من بقيه أهلاك؟ جرى إيه يا
(حسن)؟ إيه حكايتاك ما تخلنيش أدورك مكتب.. أخرج طرقها بلاش

ه ووجع دماغ.. ومشي الزيارة اللي بره خلينا نخلص..

والدعت ناحيـه (عطـيه) المـخبر مـبـتـسـما ليـشـهـدـه عـلـى ما يـفـعـلـ!

• حاجه عربیه .. والله . سجاده ورق ..

ابن سلم (عطية) المخبر (حسن عطية) في تشف وسخرية فلم يستجب له. كان (حسن عطية) لا يحبه ولا يرد على تحيته عندما يلقاءه.. و(عطية) من ناحيته لم يتأخر.. كتب عنه لرؤسائه عدة مرات متهمًا إياه بالتعاطف مع الشيوعيين وأنه يتعامل معهم ولابد من